فـنـدق الشـقاء الأزرق

د. إيهاب سلام

روايـــــة

رقـــم الإيــداع: ٨٦٢٤ / ٢٠٠٢
الترقيــم الدولـــي: ٢ - ٢٣٨ - ٢٨٧ - ٤٧٧

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان – الدور الأول – شقة ١٢
عابدين – القاهرة ☎: ٧٩٥٤٢٢٩
E-Mail: sbh@link.net

الفصل الأول

الخـطر الداهـم

ضغط بهاء مدكور على البنزين، فأنطلق الصوت مزعجا. يقولـون عن قدمي على ضاغط البنزين شديدة، ولكني في الرياض أضغط، ولا يصدر هذا الصوت من السيارة، فهل من الواضح أن هناك عيبا فـي هذا الضاغط. إن حال السيارة لا يعجبني، والكسـل يمنعنـي مـن أن أفحصها. لولا أن بالأمس أخذتني بنت أخي السيدة حرمنا إلى محطـة بنزين لفحص السيارة، غير أن الوقت كان متأخرا، فاكتفينـا بضغـط هواء العجلات، وأوقفنا المساحتين اللتين كانتا ترقصان بلا سبب لحيـن العودة من السفر. فلا أهمية لمسح الزجاج بهما فالوقت صيف.

كان السفر مخططا له، حتى لا يقال إنه يستغل فيلا السيدة المصونة ابنته الواقعة في الساحل الشمالي. وحتى لا تهنأ بمخططـات زوجـها الجديد بأن يكونا في حاجة إليها. اصبح من اللازم إهانة النقود والبعـد عن إهانة الكرامة.

كان قد انتهى من ترتيب الحقائب في داخل حقيبة السيارة، وكذلـك حقائب الملازمة الأبدية أخت السيدة حرمه المصون، وابنتها وولداهـا (بنت وولد). لازمته في الصيف الفائت في فيلا الابنة المتمـردة عنـد

تأثيث الدور الثاني منها. ولم تكن الابنة بعد قد أعلنت نوايا التمرد. وكان يأخذ السيارة يوميا من منتصف الساحل الشمالي تقريبا إلى أبي يوسف قرب العجمي.. لشراء الأسرة والدواليب وتركيب أثاث المطبخ. وكانوا قد حملوا معهم ثلاجة وديب فيريزر وحجرة معيشة وحجرة نوم، كانت معدة للبنت في سابق الأوان وهي طفلة ولم تنم عليها لأن العائلة تركت الشقة لتقيم في شقة حماته التي توفى زوجها وصارت الشقة مهجورة حتى الآن. وبعد أن انتهيا من تأثيث الشقة جاءت أخت السيدة زوجته لتقضي أسبوعا كاملا معهما بعد شقاء أسبوع بأكمله. وحينما انتهى الأسبوع لم تستيقظ إلا في الساعة الثامنة، ولم تبرح الفيلا إلا في الساعة العاشرة. ونقلتها السيارة إلى بيتها في الإسكندرية. عجبا أن يكون لها شقة في الإسكندرية على البحر مباشرة وتقوم بالتصييف أسبوعا في الساحل الشمالي. ولا تدعو مضيفيها لقضاء بعض الوقت عندها. ولو بضعة أيام.

وهاهي اليوم بعد أن أصر بهاء على أن يغادر شقته في القاهرة الجديدة إلى مرسى مطروح في الساعة السادسة، تنزل تتوكأ على عصاها تلك التي لم يكن على بالها أن تتوكأ عليها. كانت تمشي تدب الأرض فيما مضى. وكان بهاء يضاحكها ويقول إن الأرض تهتز من تحتها. اليوم تتوكأ على عصا. كانت ستمضي إلى الإسكندرية وتعود لتذهب معهما إلى مرسى مطروح. وقامت بزيارة ابنتها المقيمة في شقة قريبة من شقة بهاء. وطلبته هاتفيا أن يأتي ليأخذها من شقة ابنتها.. لم؟.. لم لا يوصلها زوج ابنتها من شقته إلى شقة بهاء فلديه

سيارة. وتعللت وهو يواجهها بهذا السؤال إن الدكتور نبيل في الخارج يشتري أشياء حيث هو وعائلته سيسافرون إلى فيلا لهم في الساحل الشمالي. وكان عليه أن يقلها بعد ذلك إلى موقف سيارات الإسكندرية في ألماظة، لتذهب لقضاء أمور متعلقة بها في الإسكندرية، وتعود.. وعند رصيف المنزل العالي، حاولت أن تصعد، وبهاء يغلق السيارة التي تغلق يدويا، سمع صرختها. وعرف أن ركبتها التوت وهي تصعد، ولا تقوى على النهوض. بالكاد وبمساعدة ابن حارس العمارة استطاعت أن تنهض وطفقت تتألم وتكاد تصرخ من الألم لولا شيء من الحياء، ولم تقو على الحركة إلا بعد لأي، حتى أنقذتها أختها الوسطى بطبيب للعظام معروف لديها هي وزوجها. وجاء معهما زوج أختها. وقرر الطبيب أن يتم وضع الركبة في الجبس من منتصف الفخذ إلى قرب بداية القدم. وامتلأ البيت بالزائرين. بنت أخيهم وأختها الوسطى وزوجها والطبيب. وبهاء يلبي طلبات الكل. وأين ابنتها الطبيبة القادمة من الكويت ومعها زوجها وولديها؟.. سافروا في نفس لحظة سقوطها إلى الساحل الشمالي. لكنها قالت إن زوجها في الخارج يشتري أشياء. يبدو أنه كان موجودا ولم يتفضل بنقلها ونقلتها أنت يا بهاء.. يا للحظ. !.. وأين ابنتها الأخرى التي سوف تسافر إلى مرسى مطروح معكما. الولد الصغير – ابنها – أصيب بإسهال وقيء، وذهبت به إلى الطبيب. وطلبت منها الأم – عائشة هانم – أن لا تبرح البيت، ولا تأتي لزيارتها حتى لا يصاب الولد بنكسة. وأجلت عائشة هانم سفرها إلى الإسكندرية وكان على بهاء أن يذهب إلى محطة ألماظة

لإعادة التذكرة إلى الشركة. وعاد ليسمعها تتألم. ولما جاء الطبيب قرر أن هناك تمزقا في أربطة الركبة، وأنه يفضل وضعها في الجبس. وشكت حالها في المساء لأبنتها - الدكتورة فايزة - وقررت الطبيبة أن دكتور العظام أخطأ عندما جبس الركبة. وأيدها في ذلك عادل زوج بنت أخيها سونيا عندما جاء لعيادتها. وطلب منها أن يتوجها معا إلى طبيب آخر في اليوم التالي.

نزلت عائشة هانم تتوكأ على عصا تسندها أختها - زوجة بهاء - حتى بلغت السيارة. رحلة تتم في دقائق لكن الشعور بالألم يجعل فاعلها يعتقد أنها تقاس بآلاف السنين. وتحركت السيارة بعد لأي وبطء. وكانت عائشة هانم قد دخلت السيارة لتركب بجانب بهاء. هي سمينة للغاية، وزنها يزيد على مائة كيلو جرام. ولكن بهاء يضحك ويقول إنه طن. عذبته هو وزوجه عفاف عذابا طويلا بعد أن قام الطبيب بوضع معظم رجلها في الجبس. صارت لا تتمكن من القيام من السرير أو الصلاة أو دخول الحمام. وإذا دخلته قهرا تعاني عفاف وزوجها الأمرين في إخراجها من حمامها الصغير المفضل في شقتهما. فقد كانت لا تستطيع أن ترفع نفسها عنه وإذا رفعتها فيمكنها أن تسير. تحتاج إلى رافعة لترفعها لتسير على قدميها. وما كاد بهاء يساعد في رفعها من على كرسي خشبي وضعته عفاف في الحمام حتى شعر بأنفاسه تختنق. وهي لا تبذل مجهودا في مساعدته إنما تتركه يسحب شهيقا لا يعقبه بزفير حتى يتمكن من رفعها قيد أنملة.

وهي جالسة كأنه قد بلطتت على قاعدة الكنيف. وأخيرا انتقلت إلى الكرسي الخشبي وعند مسند فوط الوجه في الحمام الصغير تمكنت من القيام مستندة إليه متشبثة به كأنه قارب للنجاة.

وفي اليوم التالي جاء عادل وسونيا ليحملاها إلى طبيب آخر في مستوصف قريب من البيت. وطلب الطبيب أن يكشف عليها بعد فك الجبس الذي كلفها ما يزيد عن خمسمائة جنيه في اليوم السابق وبعد ذلك طلب منها إجراء أشعة ولم يجد كسرا في الركبة. وافقت على فك الجبس وجاءت إليه ماشية على قدميها. وفحص الأشعة وقدميها وقال: انهضي سأكتب لك أدوية ضد الارتشاح وتسكين الألم فقط. وعليك أن تضعي رباطا ضاغطا هو ركبة، وهذه الركبة تلم التمزق. شعرت عائشة هانم أنها تحررت من سجن بعد تمزيق الجبس. ولما سألته: ولم قام الطبيب الأول بوضع جبس على الركبة. قال الطبيب: تجارة.

تضايقت لأن أتعاب الطبيب الأول كانت مائتين وخمسين جنيها عمل يده فقط. أما الجبس والأربطة والأدوية التي كتبها فقد قام بهاء بشرائها من صيدلية دلته عليها سونيا. وفي اليوم التالي بعد فك الجبس، ذهبت عائشة هانم معهما لشراء الأدوية التي كتبها الطبيب الجديد. وهناك اشترت السيدة عائشة العصا. وتركت بهاء يدفع ثمن الأدوية الجديدة مثلما دفع ثمن الأدوية القديمة. ودفعت هي ثمن العصا خمسة وثلاثين جنيها. ولم تحاول أن ترد السيدة عائشة شيئا مما دفعه بهاء كأنه مسئول عن تمزق أربطة ركبتها أو مسئول عنها ماليا.

حينما بدأ الطريق إلى الإسكندرية، شعر بهاء بعد أن أكل سندوتش الفول، أن الخطر داهم. كانت عصا القيادة تلين وحدها في يده لينا كبيرا حينما يسرع بالسيارة. فإذا بلغ سرعة تصل إلى مائة كيلو متر في الساعة، يشعر أن السيارة تترنح. غير أنه لم ينبس ببنت شفة حتى لا يزعج الركاب. وبدأ يخفض في السرعة حتى لا تصاب السيارة بخلل. وكان يركب في الخلف زوجه التي تنازلت عن مكان الصدارة لأختها الكبيرة. وبجانبها بنت السيدة عائشة المدللة باسم تاتا وولديها.

انتهى الجميع من أكل سندوتشات الفول والفلافل، وتمسك بهاء بمقبض القيادة، حتى لا ينحرف منه من فرط ليونته. وقال زاعقا: هذه السيارة لم يتم إصلاحها كما قال ابنك في المرة الأخيرة.

قالت عفاف: ربما غشه الميكانيكيون.

ولم يلفت نظرهم إلى الخطر الداهم الذي قد يحدث نتيجة ليونة مقبض القيادة. ابنه مهاجر في أمريكا. تعلم هناك لما تمكن بهاء من أن يجد وظيفته في الرياض وانتقل من حالة العسر إلى حالة اليسر فأغدق على ولده الذي أصر على أن يدرس الهندسة في أمريكا. وتمكن الولد في سنوات عديدة أن يحقق حلم حياته. كان من الصعب أن يلتحق بكلية الهندسة في مصر لأن مجموعه غير مساعد على دخوله الكلية أما في أمريكا فالأمر سهل. وحصل الولد على بكالوريوس في الهندسة. وكان على بهاء أن يدفع حتى انتهى الولد من الحصول على الشهادة. ولما طلب المساعدة بعد ذلك لأن البكالوريوس لا أهمية له

في أمريكا، ويجب أن يحصل بجانبه على الماجستير، وبذلك يكون محصننا ضد البطالة، رفض بهاء أن يساعده كلية مثلما فعل في البكالوريوس. وأخبر والديه بعد سنتين أنه حصل على الماجستير. وأنه يريد أن يتزوج لأن السنين تراكمت وهو على وشك أن يشيخ فمن تقبله بعد أن يهرم. وجاء إلى القاهرة ليبحث عن عروس وكان قد حصل على الإقامة والبطاقة الخضراء ثم الجنسية بعد تطبيق قانون ريجان عليه الخاص بالإقامة غير الشرعية.. واهتدي إلى فتاة تزوجها بعد خطبة دامت سنة كاملة. وعاد إلى أمريكا تاركا زوجه مع والديها. وفي هذه الإجازة الأخيرة أقلها بهاء إلى المطار لتسافر إلى زوجها. وهي الآن في حضنه. وكان ابن بهاء يأخذ السيارة في إجازاته الدراسيَة إلى شرم الشيخ وذهب. وحينما تزوج أمضي شهرين مع عروسه وانتقل بها بالسيارة إلى شرم الشيخ غرامه التليد وإلى الغردقة واستغل السيارة استغلالا كاملا لدرجة أن بهاء حينما يركبها يظن أنها "كراكة ". وكثيرا ما كان الابن العزيز يدفع مصاريف إصلاح السيارة. فهو يأتي دائما من أمريكا مدعيا الإفلاس، ويعتمد على جيب أبيه أو جيب أمه في الصرف على جولاته بل اعتمد على جيب أمه في تقديم الشبكة والمهر اللذين غال فيهما أهل العروس. ولكن الحق يقال إنه كلف فرحه الذي أقامه في دار المدرعات من جيبه الخاص. كانت خالته عايدة – الأخت الوسطى والمقيمة في القاهرة – تتعاقد له مع الدار. وكان يخاطبها هاتفيا، ويرسل إليها الحوالات المالية لتدفع منها للدار. وحينما انتهى الفرح سافر مع زوجه إلى شرم الشيخ بسيارة

بهاء. ولما عاد قرر السفر إلى الغردقة لأن زميلا له مصريا مقيما في أمريكا تنازل له عن نصيبه في نظام المشاركة بالوقت Time Share الخاص به. وكان عليه أن يقضيه في فندق يقع في الغردقة. ولازمته في تلك الرحلة أمه عفاف وأخت أمه عائشة حتى في شهر العسل لا تفارق. وكان بهاء قد عاد إلى عمله في الرياض ولما عرف أنها ترافق ابنها سماها الملازمة الأبدية. وحينما جاءت عفاف إلى الرياض ألمحت أنها صرفت على السيارة أكثر من ألفين من الجنيهات.. فيم؟.. لا تعرف إنما هي نقود كان يسحبها منها ابنه على أساس إصلاح السيارة. واتضح الآن لبهاء أن ضاغط البنزين يزعق. والدبرياج لا يزال ثقيلا كأنه ساقط. ولابد لبهاء أن يغوص في السيارة حتى يضغط بقدمه على الدبرياج ليتم نقل مقبض السرعة من الأول إلى الثاني إلى الثالث ثم الرابع. وحينما يرجع بالسيارة إلى الخلف لا يزال يجد مشقة. وذلك لأن مقبض السيارة لا يزال ثقيلا وهذا طبع في السيارة لا يختفي أبدا مهما كان الإصلاح. وكان بهاء يخفي تأرجح السيارة الحقيقي الذي يشعر به ويدعي أن الرياح تهب على السيارة فتتأرجح. وعليه أن يسير ببطء فمقبض السيارة لينا. بل كان يكاد يفلت من يده أو أن السيارة مهما تمسك بالمقبض يمكن أن تنحرف.

ذكرته زوجه ذكرى أليمة وذلك حينما قالت: يا ترى ما حال الدكتور جمعة يا بهاء الآن؟..

لم يجب: كيف يعرف؟ .. سألت عائشة هانم: ماذا به يا عفاف؟ ..

قالت عفاف بألم: كان مثل الفل وهو ينزل إلى مطار القاهرة في إجازته السنوية...

قاطعها بهاء قائلا: ولكن يبدو انه كان يشكو من ألم دفين ولا يظهره. كنت قد أجريت تحليلا في الرياض فظهر أن هناك أنزيمات زائدة عن المعدل في دمي. وكان طبيبه في مستوصف يعالج له هذه الزيادة في الأنزيمات فطلب الدكتور جمعة مني أن أفحص الكبد حيث من الممكن أن يكون لدي ميكروب سي أو بي .C. B وتبين لي من الفحص أن الكبد ليس به ذلكما الميكروبان. ويبدو أنه كان يعاني منهما أو من أحدهما.

استطردت عفاف قائلة: لما جاء الدكتور بهاء في هذه الإجازة. اتصل بالدكتور جمعة في بيته، فلم يجده ولم يجد عائلته. وهكذا حدث في بيته في مدينته وقريته لما اتصل به. واتصل بزميل لهما اسمه إسماعيل فلم يجده. لكن في آلة تلقي الأجوبة أو الأسئلة طلب منه أن يتصل به. وفعلا اتصل إسماعيل ولكن الدكتور بهاء كان نائما. وعاد واتصل به مرة أخرى واتضح من كلامه أن الدكتور جمعة مريض مرضا شديدا. وعرف منه أنه مصاب بتليف في الكبد وأن المرض وصل إلى الغدد.

راح بهاء يقول: ذهبت إليه في بيته عند عودته إلى القاهرة وجدته نائما كأنه يعاني من سكرات الموت. وعنده صديقه إسماعيل. كان يعمل معنا في الرياض كاتبا على الحاسب الآلي ولكن صلته توثقت

بالدكتور جمعة هناك واستمرت بعد انتهاء عقده وعودته إلى مصر فكان يلتقي به في الإجازات. وفي هذه الإجازة ذهب الدكتور جمعة إلى طبيب في الكبد. فكتب له على ثلاث حقن كيمائية ضد الأورام. وانقلب حال الرجل من رجل نشط إلى رجل آيل للسقوط. ولازم الفراش ولم يعد يأكل. ونقلته زوجه إلى القاهرة لعلها تجد مستشفى يشفيه من مرضه. حزنت فعلا عليه. وحزنت أكثر لأن ابنه المتفوق منقول إلى السنة الثالثة في مدارس الرياض الثانوية. ولا يعرف هل سيبقى في القاهرة فيضطر إلى دخول السنة الثانية الثانوية من جديد لاختلاف النظم بين القاهرة والرياض، أم أن أباه سيقوى على النهوض ويعود إلى الرياض فلا تضيع عليه سنة.

سألته عائشة بفضول: كم عمره؟ ..

أجاب بهاء: إنه لا يزال صغيرا. في الخامسة والخمسين.

كانت عائشة هانم قد تجاوزت السبعين وأختها عفاف تجاوزت الخامسة والستين. والدكتور بهاء لم يتعد بعد الثانية والستين. فظهر لها أن الدكتور جمعه لا يزال صغيرا بالنسبة لهم.

بلغت السيارة بيت الاستراحة The Rest House عند الكيلو مائة في الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية أو أقل من المائة. ولم يصعدوا إلى المطعم العلوي في الاستراحة خشية أن تنزلق قدم عائشة هانم مرة أخرى وتحدث نكسة جديدة لها. وجلسوا في المطعم المجاور للطريق العام، حيث قبعت السيارة تحمل على ظهرها حقائب عائشة

هانم وابنتها وولديها. وفي حقيبة السيارة حقائب عفاف وبهاء. وجلسوا يحتسون الشاي.

كانت الساعة التاسعة والنصف. والجو قيظ، والشمس لهيبها لا يطاق. وتستر بهاء تحت الشمسية. فكان الظل مخففا قليلا لهذا الهجير. هذا ليس صيفا. هذا فرن. ولولا هذا الفرن لما فكر أن يذهب إلى مرسى مطروح. ولسبب آخر ألا تقول ابنته أنه لم يكن قادرا على التصييف، وأنه استغل فيلتها في السنة الماضية لقضاء بعض إجازته فيها. تلك الفيلا القابعة في الساحل الشمالي التي لو كانت قد ذكرت أنها سوف تشتري أرضها لأشترى هو الآخر قطعة من الأرض في المكان الذي كانت فيه. إنما تكتمت الأمر هي وزوجها السابق واشتريا الأرض وتعاقدا مع المقاول أن يبنيها ثم أعلنت الخبر عندما أصبح البناء جاهزا. واختلفت مع المقاول في الأسعار ثم اتفقا. وطلبت أن تتكفل أمها بتجهيز الدور العلوي من الفيلا. وكان الخلاف قد دب بينها وبين زوجها. وسمم حياتهما شخص تعرفت عليه بحكم عملها فحرضها على طلب الطلاق ولكن الزوج لم ينتظر أن تنفذ التحريض فقام بتطليقها. وتم خراب البيت. ولم يوافق بهاء ولا زوجته على الطلاق كما لم يوافقا على الزوج الجديد. فما كان من الابنة إلا التمرد، والخروج عن طاعة الوالدين. وخسرت زوجها السابق، وفقدت ولديها، ولم تكتسب استمرار رضا أبويها عليها.. وذلك من أجل رجل لا يساوي شيئا. ليس مليونيرا حتى يقال إنها تركت الرجل السابق وهو لا يزال يكون مستقبله. وليس ذا شهادة عالية في الهندسة أو الطب أو

دكتورا في الجامعة إنما هو خريج آداب قسم تاريخ دور نوفمبر. وليس جميل الطلعة جذاب حتى تتساقط النساء حواليه إنما هو كثيف الحواجب جاحظ العينين يمشي يترقص. على ماذا أحبته؟ .. وماذا أعجبها فيه.. لله في خلقه شئون. ولما تم طلاقها، بدأت في مشاكل مع طليقها. ورفعت قضايا كثيرة: قضايا المتعة ومؤخر الصداق ونفقة الطفلين وحراسة على أرض اشترياها معا في العامرية. وكانا قد اتفقا أن تتنازل لطليقها عن ربع الشقة اشترياها معا. ويتنازل عن نصف الفيلا في الساحل الشمالي. وطلبت من أمها أن تجهز لها دورا في الساحل الشمالي. ثم فوجئت أمها أنها تزوجت من ذلك الرجل الذي كان سببا في خراب بيتها. وهجرت الرياض، وتركت وظيفتها التي تدر عليها ذهبا وسافرت إليه في الإمارات بعد أن انتقل إليها. وتركت ولديها لأبيهما وتركت أهلها من أجل كثيف الحاجبين جاحظ العينين... لم نسمع أن أما تترك أولادها من أجل رجل، خاصة إذا كان طليقها قد ترك الأولاد في حضانتها؟ .. ولم نسمع عن امرأة تترك عائلها وولي أمرها وتستقل وتتزوج رجلا لا يرضى عنه أهلها وتترك وظيفتها من أجل أن تلحق بالرجل في بلد آخر؟ .. وكيف قبل هذا الرجل أن يتزوج بها وهي المرأة المطلقة ذات الولدين؟ .. يبدو أنه يعرف مقدار ما لديها من مال، كونته على مدى عشر سنوات أثناء عملها بالرياض، وما دخلت هذه البلاد إلا تحت جناح أبيها الذي تنكرت له؟ .. ولعل الزوج الجديد يريد أن يتربص بها وينهب مالها أو على الأقل يتمتع به وحده خاصة أنه يعرف أنها ساذجة كانت تدفع لزوجها السابق مقدمات

الشقة والأرض في الساحل الشمالي والأرض الزراعية ولا تستكتبه ورقا أو نتأكد من أوراق البيع والشراء هل كانت تحت اسميهما معا أم كانت تخص الزوج فقط. وذلك ما وضح أن الزوج السابق كتب العقد الرسمي بالأرض الزراعية باسمه ولولا أن العقد العرفي كان موقعا من كليهما معا لضاعت الأرض بكاملها.

الفصل الثاني

فـــندق البـــحر الأزرق

قال بهاء، وهو يقترب من مرسى مطروح: أعلموا أن الفندق ثـلاث نجوم وليس خمس نجوم. فلا تنزعجوا إذا وجدتم الخدمـــــة بـــه غـــير مقبولة.

قالت عفاف برضا غريب: لا أهمية للأمر .. نحن سوف ننام الليـلى فقط. وبقية النهار والجزء الأول من الليل على الشواطئ أو نتفسح فـــي مرسى مطروح.

وكان يعرف أنه مجرد كلام تطلقه زوجه، لأنه عهد فيها ألا تخـرج من البيت، وقال بهاء ساخرا: وهل عائشة هانم قادرة على الفسحة؟ ..

قالت عائشة في رضا تام: لا تقلقوا بالنسبة لي. أنـــا ســـأبقى فـــي الفندق ولن أبرحه. تمتعوا أنتم فقط. هذا يسعدني. أنا أريـــد أن تمــرح ابنتي وولداها ويتمتعوا متعة جيدة.

قالت تاتا معترفة بالجميل بعينيها الواسعتين كعيني أمها وخالتـــها: شكرا يا ماما ..

تدللها العائلة بتاتا، لأن أباها أصر على تسميتها بمرجريتا. على اسم مدرسة له كان يعتز بها أثناء دراسته للهندسة في فرنسا. وكانت عائشة هانم تعرف أنها لم تكن مدرسة إنما تخمن أنها حبيبته. وكانت قد سمتها أمنية، غير أنه نزل إلى الموظف المختص بالمواليد من بيته غاضبا، وأصر على تعديل الاسم إلى مرجريتا، لذلك اكتفت الأم بتسميتها تاتا.

أختها الكبرى سماها أيضا اسما أوربيا، زعم أنه لصاحبة البنسيون الذي كان يسكن فيه، وهو يعتز بها لأنها أكرمته كثيرا. غير أن اسم الطبيبة ابنتها الوسطى فقد كان على اسم أمه .. فايزة. وكثيرا ما كانت الفتاة تسخر مستغربة وتقول: دكتورة واسمها فايزة. فايزة هذه اسم مغنية فكيف تكون دكتورة؟ .. وكانت الأخت الكبرى قد تزوجت وسافرت إلى زوجها بالكويت وعملت هناك ولحقت بها الأخت الوسطى وعملت هناك وتزوجت مصريا طبيبا يعمل هناك. أما تاتا فقد تزوجت ابن تاجر، عرفت عنه تاتا أنه بخيل قبل أن تتزوج، واكتشفت بعد زواجها أن ابنه لا يختلف عنه، والدليل على بخله أن أمها هي التي تكفلت بهذه الرحلة من حسابها الخاص، ولم يساهم ولو بجزء بسيط فيها. لولا أمها تمد لها يد المساعدة لكانت حياتها مع ذلك الرجل شقاء. ورغم أن عائشة هانم كانت حريصة في مصروفها، غير أنها لم تكن تبخل على ابنتها الصغرى بشيء كأنها كانت تعوضها عن بخل زوجها. والحقيقة أنها كانت تعوض ابنتها الصغرى عما أخذته قسرا من تركة زوجها، إذ لما مات أبوها استولت على كل ما يملكه من

مال، ولم تحاول واحدة من بناتها الاعتراض. كانت تملك توكيلا عاما لزوجها، فلما قضى نحبه، سحبت كل ما له في المصرف من أموال سواء سائلة أو ودائع وضمتها إلى ذمتها، وعرف البنات ذلك فلم يعترضن، لأن في الأمر جنحة الاستيلاء على أموال الغير بغير حق، فهل يرتضين أن تحبس أمهن؟ .. ولعل البنتين العاملتين في الكويت لم تعترضا لأنهما ليستا في حاجة إلى مال. والبنت الثالثة لم تعترض لأن زوجها لو عرف أن لديها مالا سائلا فسوف يتوقف عن الصرف على بيته حتى تستنفد كل ما لديها، لذلك اكتفت بأن تغدق عليها أمها سرا أو علنا من حين لآخر. ولعل ذلك كان من أسباب عدم اشتغالها رغم أنها حصلت على البكالوريوس، وعوضتها عن ذلك باشتراكها في نقابة التجاريين عضوا غير عامل، وتدفع أمها الاشتراك سنويا، كل ذلك خشية أن يعتمد زوجها على مرتبها ويتوقف عن الإنفاق على بيته.

دخلت السيارة أخيرا مرسى مطروح، الطريق ناتئ، يرتفع وينخفض، مسفلت منذ زمن بعيد، والحر لافح ينفذ إلى داخل السيارة مفتوحة الشبابيك، فيسيل على أثره العرق مدرارا، مما جعل بهاء يقول: هذا ليس مصيفا .. هذا محمصة.

لم يكن للبحر الأزرق أي أثر. الهواء راكد. والقيظ يعم كل الأماكن، والسيارة تجري بالقرب من البحر. وسمعوا من ينادون على السيارة: شقة .. شقة .. غير أن بهاء توقف ليسألهم: من أين الطريق

إلى فندق البحر الأزرق. أشار إليه واحد من المنادين أن يرجع إلى الخلف. وبعد شارعين سوف يجد فندق البحر الأزرق في أوله.

تذكر بهاء أنه طلب من موظف شركة السياحة الذي أرشده إلى الفندق أن يحجز له مدتين في فندق البحر الأزرق. ومدة أخرى في فندق في الإسكندرية. ووعد عادل وسونيا أن يمرا عليهما في شقق القوات المسلحة بالعجمي لقضاء يوم معهما ثم يعودون جميعا إلى القاهرة بسيارته اللادا. أما السيدة عائشة وابنتها وولداها فسوف يتركهم قبل أن يمضي إلى الإسكندرية عند فيلا الدكتورة فايزة وزوجها الدكتور نبيل.

عادل كان ضابطا بالقوات المسلحة، بلغ رتبة مقدم، ورقي إلى رتبة عقيد، ثم أحيل إلى الاستيداع ثم المعاش، ولكن لم تنقطع صلته بالقوات المسلحة، إذ لا يزال يتمتع - هو وأولاده - بمستشفياتها ونواديها ومصايفها. كأنه لا يزال في الخدمة. وانجب ولدين وبنتا. الأول كان ذكيا فحصل على مجموع أهله إلى دخول كلية الطب البيطري. والثاني كان كسولا فحصل على مجموع رمى به إلى كلية التجارة بالمنصورة، وتمكن الأب من نقله إلى تجارة جامعة عين شمس بعد أن رسب في السنة الأولى ونجح في السنة الأولى في السنة الدراسية الثانية. أما الفتاة فقد كانت ذكية مثل أخيها الكبير. بل تفوقت عليه وحصلت على مجموع أهلها لدخول كلية الهندسة بجامعة حلوان. وسمح لها عادل بأن تسافر لقضاء إجازة الصيف مع أخته وبنت أخته وابنتها في الإسكندرية في العجمي. ثم فوجئ بأن مدير النوادي

والشقق المفروشة للقوات المسلحة - صديقه وجاره بمدينة نصر - يدعوه لقضاء أسبوعين في معسكر العجمي في شقة من الشقق التابعة للنادي. وكان على ابنته رشا أن تلحق بهما في الأسبوع الأخير حيث ينتهي موعد مصيف أخته وابنتها.

وهكذا يعود عادل وسونيا ورشا مع الدكتور بهاء وحرمه خالة زوجته إلى القاهرة معا. وكان من المقرر أن تقضي السيدة عائشة - هي وابنتها وولداها - فترة عند ابنتها الدكتورة فايزة تعود بعدها إلى الإسكندرية ثم تعود من جديد إلى القاهرة بعد أن تقضي على مشاغلها في الإسكندرية التي تعطلت بسبب التواء ركبتها. وتشارك في القاهرة السهر على تبيض شقة العائلة في الجيزة كما أمرهما أخوهما المهاجر إلى أمريكا منذ ثلاثين عاما. ولا يزال يحتفظ بشقة العائلة هو وأخته عفاف. وكانت سونيا قد عرضت على أبيها الدكتور إبراهيم فكرة لاحت في خاطر ولديها الكبيرين. والكبير في الثانية والعشرين من عمره والآخر في العشرين من العمر. وما هي هذه الفكرة؟ .. كانت قد تملكتهما فكرة السفر إلى أمريكا للعمل هناك طوال فترة الإجازة. غير أنه عارض كعادته. عارض أول مرة في سفر ابن عايدة أخته الوسطى إلى أمريكا لدراسة الدكتوراه في الهندسة. ولكن الفتى أصر وسافر على حساب أبيه. ثم تسرب ولدا الأخت الوسطى بعد ذلك للعمل هناك، دخلا تحت مظلة السياحة، وتزوجا من أمريكيتين، ثم حصلا على البطاقة الخضراء، ثم طلقا الأمريكيتين، واستمرا يعملان بالولايات المتحدة. فأبو سونيا له سابقة في رفض أكبر أولاد العائلة

الذكور في السفر فهل لا يرفض سفر حفيديه؟ .. وحينما سافر ابن عفاف البكر مع أبيه، واستقر في أمريكا، رفض أن يتصل بخاله في البداية ولما تمكن الفتى من الحصول على بكالوريوس الهندسة، بمساعدة أبيه المغترب في الرياض، استمر يرفض أن يتصل بخاله، رغم أنه كان مزهوا بحصوله على بكالوريوس الهندسة، ولم تجذبه الإغراءات الكثيرة في أمريكا. ولم يفعل الفتى ما فعل خاله إنما استقبل الحفيدين عنده في بيته الضيق، ولم تكن زوجه المصرية قد وصلت بعد، وهيأ لهما سكنا، وهيأ لهما عملا، وساعدهما في ذلك أبناء عمتي أمهما. فوقف الأبناء موقفا رائعا لم يقفه الجد. ولا يزال يصر ألا يوقفه كأنه خائف أن يشار إليهما بأنهما حفيداه ولا يكفلهما. لم تهتم سونيا بمعارضة أبيها، وسمحت للولدين أن يتقدما إلى السفارة الأمريكية من تلقاء نفسيهما. وكم كانت المفاجأة مدهشة فقد حصل الابن الكبير على سنة في تأشيرة الدخول إلى أمريكا. والصغير حصل على خمس سنوات يمكن فيها أن يدخلها. ولكنهما لن يتمكنا أن يقضيا أكثر من ستة شهور وهي ما سمحت به الجوازات الأمريكية. ويجب من ناحية أخرى أن يعودا لإتمام الدراسة.

قال بهاء وهو يرى الفندق يقع بعيدا عن البحر في شارع منزو: إذا فقد خدعنا موظف شركة السياحة. وأدعى أن الفندق يطل على البحر.

قالت عفاف: لا أهمية لذلك. الفندق كما هو ظاهر ليس بعيدا عن البحر.

ذهبت عفاف ومعها عائشة وابنتها والطفلان. بينما أخذ بهاء يفك الأربطة عن الحقائب ويستخرج حقائب أخرى من حقيبة السيارة. وكم عذبته الحقائب المستندة إلى سقف السيارة، فكان الطفلان يصرخان أن أحد الحقائب على وشك السقوط، فيقف بهاء في الطريق الصحراوي ليعدل وضعها، وبعد تعب في إعادة ربط الحبال من جديد، يتمكن من السير ثانية فيعود الطفلان يصرخان بأن إحدى الحقائب ستعاود السقوط.

يبدو فندق البحر الأزرق من الخارج فندقا ضيق الحجرات شرفاته صغيرة قد لا تتسع لأكثر من شخص. لم يقل له موظف الشركة السياحية أن الفندق بعيد بمائة متر من البحر. تدخل إليه من خلال شارع واسع فعلا. يفصل بين الذاهب والآتي. لقد كانت قيمة الأيام الأربعة والليالي الثلاثة لمن يريد أن يقضيها فيه مائة وخمسة وستون جنيها للفرد أي أنه وزوجه ثلاثمائة وثلاثون جنيها. ولكن حينما طلب مدتين كان عليه أن يدفع سبعة مائة وسبعين جنيها بزيادة تقدر بقيمة اليوم الذي بين المدتين. ألم تكن الابنة المتمردة أولى بهذه المبالغ بأن تشتري أسرة ودواليب جديدة لفيلتها في الساحل الشمالي للدور الأول ؟ .. كان رفضها أن تذهب أمها وولداها إلى الفيلا أمرا مرفوضا منها بحجة أن طليقها سوف يأتي إليهما ليرى طفليه. لقد كان ولداها سوف يتمتعان ويمرحان في البحر والبر ويتمتعان بألعاب مختلفة موجودة

بمطعم القرية، لكنها خشيت أن يدخل طليقها الفيلا، فزوجها الحالي لا يرضي بذلك. وكان من قبل يملك نصف الأرض وتنازل عنها مقابل تنازلها عن ربع شقتهما التي كانت تملكه فيها. وماذا يحدث لو دخل؟ .. لابد أن الذئب الذي تزوجته نهاها عن ذلك فقد سمعت عفاف وهي تكلمها من الرياض صوته وهو يلقنها ما ستقول لدرجة أنها حذرت أمها من دخوله واحتدت عليها فما كان من أمها إلا أن تقطع الاتصال مستنكرة أن تكلمها بهذه اللهجة الآمرة. وسلمت عفاف مفتاحي الفيلا ذات الدورين إلى خالتها عايدة، رافضة أن تحتفظ بهما طالبة منها أن تسلمهما إلي هذه البنت الخارجة عن الطاعة.

لم يصرح موظف شركة السياحة التي حجز لديه بهاء بوضع الفندق البعيد عن الشاطئ. قال فقط إن هناك حجرات تطل على الشاطئ بلا تكييف أما الحجرات المطلة على الشارع الداخلي فهي مكيفة الهواء. وكل ذلك ظهر مخالفا للواقع.

صرخت عفاف بعد أن دخلت الحجرة المخصصة لها، وقالت إنها حر. لم تطق البقاء بها. المضيفة بالفندق فتحت لها باب الدخول، وباب الشرفة فدخل تيار عنيف من الهواء البارد. صاحت عفاف تقول: وهل أنام والباب مفتوح من أجل الهواء؟ .. أريد حجرة مكيفة. قال موظف شركة السياحة لزوجي إما حجرة على البحر وإما حجرة مكيفة.

وغادرت الحجرة لتتفاهم مع مدير الفندق.

بقى بهاء في الحجرة مع الحقائب، وفكر أن يستحم. لقد استغرقت الرحلة ثمانية ساعات، وكان من المفروض أن تنتهي في أربع ساعات، لكنها تلك السيارة المتهالكة استطاعت أن تقطع المسافة الطويلة في تلك الساعات. رغم أنها توقفت ساعة في بيت الاستراحة في طريق الإسكندرية، وكذلك نصف ساعة عند الضبعة قبل مرسى مطروح بقليل، حيث شربوا زجاجات المياه الغازية الصغيرة. ورغم ذلك كان العرق يتسلل إلى كل جسده وتنشف أملاحه على جلده.

لكن سمع طرقا على الباب، وجاءت تاتا تعلنه أن السيدة حرمه المصونة قد اختارت حجرة بمكيف مقابل سبعين جنيها. وأنهم ارتضوا حجرة مواجهة لهذه الحجرة لا تطل على البحر لأن في داخلها حجرة أخرى يمكن أن تكون ملاذا حسنا لها ولولديها من شخير أم تاتا، لذلك ارتضت هذه الحجرة رغم أنها كانت أشبه بفرن حينما دخلتها. وكانت المروحة الصغيرة بالحجرة تعمل دون فائدة. ووعدتها فتاة الاستقبال أن تمدها بمروحة أخرى. قال بهاء ضاحكا: من المستحسن أن تكون مدفأة .. لأن هواء البحر العليل يصل إلى الحجرة باردا.

وأدركت الفتاة أنه يسخر من أوضاع الفندق.

لما دخل بهاء الحجرة الجديدة وجد بها عاملا يقوم بتحريك المكيف فلا يطلق هواء باردا، ذهب إلى زوجه وأخبرها أن المكيف لا يعمل، وكانت قد دفعت السبعين جنيها إلى فتاة الاستقبال بالفندق. وفجأة انشقت الأرض عن رجل بدين قوى العضلات، يقول: في خمس دقائق

سوف تكون الحجرة ثلجا .. لقد كنت أوصل الكهرباء بالمكيف من أسفل. فالتكييف مركزي. نظر بهاء إلى التكييف فوجده شباكا، فكيف يكون مركزيا؟ .. وأدرك أن لدى صاحب الفندق أزرارا تحرك المكيف وتطفئه من لدنه.

عاوده التفكير أن يستحم من أثر المشوار، غير أنه وجد أن الماء يتساقط قطرات ثم ينقطع ويكف عن السقوط. فصاح غاضبا: هذا ليس فندق البحر الأزرق. هذا فندق اليوم الأزرق. وجاء الرجل البدين مسرعا، وقرر قائلا: الأمر ليس بيدنا. حالا سوف نتصل بمصلحة المياه حتى يتدفق الماء.

هل هذا معقول بمجرد الاتصال يتدفق الماء؟ .. أيظن أننا سذج؟ ..

وبعد قليل تدفق الماء. لكن الحمام كان خاليا من أي فوطة أو أي صابونة. وكان من قبل خاليا من الماء. وخرج بعد أن استحم بالماء وأعطته عفاف صابونة وفوطة وغيارا وهو يقول: هذا فندق الأسبوع الأزرق.

حان موعد العشاء ، فقد كان الاتفاق مع الفندق يتضمن أن يقدم الفندق الإفطار والعشاء مع المبيت. وما كادوا ينزلون حتى وجدوا المصعد معطل لا يعمل. فكيف تنزل السيدة عائشة ذات الركبة المعطوبة على السلم؟ .. إنها الآن تسير لكن لم تجرب السلم. وتخشى أن تصاب ركبتها بنكسة. ولا زالت تدعو على الطبيب التاجر الذي جبس رجلها من فخذها إلى قرب قدمها لأن أربطة الركبة تمزقت.

فهل تدعو على صاحب هذا الفندق الذي أسكنهم في محمصة تزيدها المروحة لهبا. لقد وعدهم الدكتور بهاء بحجرة على البحر. وهاهو صاحب الفندق يضعهم في حجرة كالمدفن تطل على البحر بزاوية. وما ذنب الدكتور بهاء في ذلك إن الذنب ذنب موظف شركة السياحة الذي خدعه.

ونزل الدكتور بهاء فوجد موظف الاستقبال فطلب منه أن يرفع الوصاية عن المصعد لأن أخت زوجه مريضة ولا تستطيع أن تنزل على السلالم.

انتظروا العشاء ساعة أن يأتي فلم يأت كأنه تبخر. أو هرب منهم من المطبخ وغرق في البحر وهو يجري منهم. ونطق الدكتور بهاء قولته: ألم أقل لكم إنه فندق الهباب الأزرق.

قالت عائشة هانم: الحر لا يطاق في هذا المطعم. أوصل البخل إلى حد عدم إطلاق المراوح.

صبرتها ابنتها تاتا وهي تقول: لنتحمل حر الليل، فغدا على الشاطئ لا حر هناك.

قال الدكتور بهاء يائسا: لا أظن. إن المكيف لدينا يخفف قليلا من ألم الحر. لم لا تنتقلا إلى غرفة مكيفة. سبعون جنيها لا أهمية لها. لقد صرفت على أربطة الركبة أكثر من خمسمائة جنيه. فلتكن خمسمائة وسبعين جنيها.

كان كأنه يذكرها أنها لم تدفع شيئا وعليها الدفع، فقد دفع عديله قيمة أجر الطبيب، ودفع هو قيمة أجر الأدوية والأربطة، ولم تدفع هي غير ثمن العصا ..

وقالت عائشة هانم ممتعضة: لا .. المكيف متعب.

وتساءل بهاء سرا: ولم لم يكن متعبا في شقتي، وكنت تنامين فيه طول الليل، والنهار. هكذا همس الدكتور بهاء لنفسه: يبدو أن الشيء المجاني محبب إلى النفس من الشيء المكلف. بل إن ابنتها وولديها جاءوا للمبيت في الشقة، وناموا في حجرة مكيفة، ولم يشعروا بحر القاهرة المقيت، فكيف هم لم يتعبوا؟ .. إنها تذكره برجل يصرف على بيته عن سعة، وفي نفس الوقت، يحاسب زوجه على شط أعواد الكبريت بكثرة.

جاء الطعام بعد لأي باردا. كان لأربعة أفراد ولا يدخل في الاعتبار الولد والبنت ولدي تاتا. وكان مكونا من السلاطة والمكرونة وقطعة فيليه من الدجاج. رفضت أن تأكل عائشة هانم الدجاج. صارت بعد أن اصبح أبيض الريش، لا تطيقه. وتتحسر على أيام الدجاج البلدي. وقطعت عفاف نصف وجبتها وأعطتها لطفلي تاتا على زعم أنها لا تحب الدجاج كثيرا. غير أن الدكتور بهاء أكل طبقه بالكامل، ولو أن المكرونة كانت في أجزاء منها باردة، وهو من محبي الأكل ساخنا. ولكنه تعود أيام الجيش التي لا تنسى أن يأكل الطعام ولو كان بائتا. تلك الأيام التي مضى عليها الآن أقل من أربعين سنة.

ولم تكف تاتا عن لفت نظر ولديها وهما يأكلان. تصــــرخ أحيانــا حينما يتلكأ الطفل في مضغ طعامه. وتلاطف أحيانـــا حينمـــا يســـرع الطفل في المضغ. والبنت تغضب حينما تعنفها. والولد يبتهج عندمــــا تقربه إليها. إنها مضطربة في تربية ولديها، وهي تقلد أختها الكـــبرى حينما كانت تربي أولادها. كانت تصرخ وتشتم وتلعن، ولكنها قللـــت الآن من عنفها حينما استقامت قامة أولادها وفاقتها طولا.

الفصل الثالث

أبـــو لهـــو

قالت عفاف ضاحكة: خذنا يا بهاء إلى شاطئ أبي لهو.

سألت عائشة هانم مستغربة: وهل هناك شاطئ بهذا الاسم؟ ..

قالت تاتا معلقة: يبدو أن خالتي تضحك.

قال الدكتور بهاء مبينا الحقيقة: الحقيقة أن لنا قطعـــة أرض فيـه. ونريدكم أن تروها. لم تدخلها المرافق بعد. قال لنا رجل في محكمـــة مرسى مطروح في السنة الماضية أن المرافق قد تدخلها بعد خمســين سنة.

سألت عائشة مستغربة: ولم اشتريتموها؟ .. وماذا ستفعلون بها؟ ..

قالت عفاف: سوف ننتظر إذا لم تدخلها المرافق فسوف نبيعـــها أو يبيعها الورثة من بعدنا ويكسبون فيها. أما إذا دخلتها المرافق ونحــن لا زلنا على قيد الحياة وتمكنا من بنائها فسوف نبنيها. هناك تطل علـــى الشاطئ مباشرة ومنظر الشاطئ سوف ترونه جميلا وبديعا .. جميـــلا فعلا .. يا أبله لدرجة رائعة.

زمجرت السيارة، وبهاء يضغط على البنزين، ووجد صعوبة وهو يرجع إلى الخلف، ثم انطلقت السيارة، وهي تترجرج. يشعر بهاء أن شيئا فيها ساقطا، لكنه لا يهتم ولا يفكر أن يأخذها إلى ميكانيكي لفحصها. قد يكون الميكانيكي غير كفئ. وبهاء أصلا كسول لا يتحرك. قد تتعطل بكم في الطريق، حينما تتعطل نفكر في إصلاحها. ما دامت تسير فلا بأس في ذلك.

اشترى بهاء زجاجة ماء وزجاجة سفن أب كبيرتين. والولد والبنت يتنافسان على دور كل منهما في الجلوس في حجر أمه. ومن منهما سوف يجلس بين الخالة والأم. أما عائشة هانم فإن مقعدها الأساس بجانب السائق بهاء لا يتغير. لا يمكن لأحد أن ينافسها فيه. إن السيدة ركبتها معطوبة. وهل كانت في السنة السابقة ركبتها بها أذى؟ .. كانت تتحرك كالجواد الجامح. رغم ثقل جسدها.

اتجه بهاء إلى أبي لهو حيث الأرض التي اشتراها من شركة في الرياض مركزها الرئيس في مصر. يديرها سعودي الجنسية، ويشاركه مصريون. ويسافر من الرياض إلى الإسكندرية حيث مركز الشركة ومن الإسكندرية إلى الرياض بصفة منتظمة. دله عليها الدكتور سليمان المدير السعودي للإدارة التي يعمل بها. واشترى مثله قطعة أرض أربعمائة متر. وهو يدفع قسطا بعد قسط. أما بهاء فيدفع ثلاث أقساط مرة واحدة، حتى كادت الخمسة والثلاثون قسطا أن تنتهي. لم يبق إلا اثنا عشر قسط فقط. حين كان هو وعفاف في السنة الماضية يجهزان الدور العلوي من فيلا البنت المتمردة. ولم تكن بعد

قد كشفت عن نواياها في التمرد، كانت مطلقة فقط وتعيش وولداها في بيت أبيها. سافرا إلى مرسى مطروح يوما واحدا لاستطلاع موقع قطعة الأرض. وانتقلا من الشهر العقاري خارج مرسى مطروح إلى الشهر العقاري داخل محكمة مرسى مطروح. حيث دلهما أحد الناس عليه. جاءا ليتأكدا أن الأرض مملوكة ومسجلة باسم الشركة. واتضح لهما أن بالشهر العقاري عقدا مسجلا بين إعرابي يعيش في مصر الجديدة. وشخص آخر لا يعرفان هويته وصلته بالشركة على بيع الأرض (كل القطع المباعة من الشركة) إلى الشخص الآخر. وحينما عادا إلى الساحل الشمالي وانتهيا من تأثيث الدور العلوي للفيلا كان عليهما التوجه إلى الإسكندرية لإحضار عائشة هانم لتقيم أسبوعا معهما وتتمتع هناك في القرية السياحية. وكانت قد أصبحت أرملة مات زوجها منذ ست شهور. فمرا على المركز الرئيس للشركة وهناك حاول الموظفون أن يثبتوا لبهاء أن الأرض آلت ملكيتها إلى أحد الأعضاء بالشركة المذكور اسمه في عقد البيع المسجل. رغم أنهم اعترفوا أن العضو قد حصل على حصته كاملة وخرج من الشركة. لفت بهاء نظرهم إلى أن الموقف حرج وأن عليهم أن يثبتوا أن ذلك العضو باع الأرض للشركة أو أنه اشتراها بتفويض من الشركة. وحاولوا أن يثبتوا ذلك ففشلوا. ورغم ذلك استمر بهاء يدفع الأقساط. وقد ذهب بهاء مع مندوب الشركة في مرسى مطروح إلى الأرض واضطلع على القطعة الخاصة به وهو يعرف الطريق جيدا إليها.

بدأ بهاء يقرأ اللافتات المعلقة على الطريق. كليوباترة. الأبيض. عجيبة. وبين عجيبة ومرسى مطروح ستة وعشرون كيلومترا. والسيارة اللادا تنهب الأرض نهبا. والبحر يظهر بشكله الجميل. أزرق خفيف في المقدمة ثم أزرق غامق في مؤخرة البحر. ومثل هذا اللون البديع لا يوجد له مثيل في الإسكندرية. فهو يعرف أن البحر هناك كما لو أنه امتلأ بالغرين. اصبح بنيا كأن النفط أغرقه فحول لونه الجميل.

هناك وراء مرتفع عال أشار إليهم بهاء بموقع قطعة الأرض. ثم عاد من جديد إلى الطريق إلى مرسى مطروح. الدكتور سليمان كان يساوم الدكتور جمعة على أن يشتري منه قطعة الأرض التي تخصه في أبي لهو. يريد أن يكسب منه. ترى كم جنيها سوف يصرفها على مرضه الآن؟ .. وهل يستطيع بعد ذلك أن يشتري قطعة الأرض؟ .. وهل سيعود من جديد إلى العمل؟ .. إن زوجه قالت إنها سوف تطلب له مهلة ستة أشهر. إجازة بلا راتب. وافقها الدكتور بهاء على ذلك، فهناك سابقة في العمل وافق فيها الأمين العام على إجازة لخبير سابق على تلك الإجازة نظرا لظروفه المرضية، ولو أن الخبير رحل ولم يعد. وفي حالة الدكتور جمعة لن يتردد في منحه هذه الإجازة، فهو يعتمد عليه في كثير من المذكرات والأبحاث الهامة، وله حظوة عنده ليست إلا لخبيرين آخرين فقط عملا معه منذ إنشاء المصلحة الحكومية.

طلبت تاتا أن ترى شاطئ عجيبة. وترك بهاء قطعة الأرض المتوارية وراء مرتفع، وعد المسئولون في الشركة بإزالته. وألقى

نظرة على البحر البديع. أزرق في نهايته سماوي فـــي بدايتـه كأنــه مرسوم بريشة فنان مبدع. وتذكر قطعة الأرض التي كان قد اشـــتراها إسماعيل في الهرم منذ عشر سنوات. ولم يتركها مثلما ترك بهاء هــذه القطعة من الأرض، إنما بدأ في بنائها حتى تمكن خلال ســنوات مــن رفع هامة البناء إلى ثلاث أدوار. في كل دور شقة واحدة. وصمـــم أن تكون الشقتان الأوليان لأبنه الكبير وابنه الصغير. أما البنت فإن مـــن واجب من يتقدم للزواج منها أن تكون لديه شقة. وفجأة ضاع كل ذلك. نقل ابنه الخائن ملكية العمارة بأسرها إلى أمه. بكت أمام ابنها كما قــال لأبيه فيما بعد. وأوهمته أن أباه سوف يتزوج من أخـــرى. وأن أبـــاه سرق أموالها التي اشتغلت بها حينما كانوا في ليبيا. كانت تعمل هنـــاك وادخرت نقودها. وأخذها منها ليبني العمارة. بناهـــا علـــى حســـابها. غضب الفتى من أبيه، لم يناقشه فيما اقــترفت يــداه. انتـــهز فرصـــة التوكيل العام ونقل الملكية باسم أمه انتقاما من أبيه اللص. وبعد أن تــم نقل الملكية في كل أملاك أبيه إلى أمه كشفت الأم ذلك النقل. واكتشـف الولد في نفس الوقت أن أمه كاذبة. وأنها لا تـــزال تحتفـــظ بأموالـــها كاملة. وأن العمارة بنيت بعرق أبيه. حاول الاعتذار، ولكنه تملص في رد أموال أبيه إليه. وكان نصيبه أن طرده أبوه من حياته ولم يحضـــر زفافه. وعزف عن زيارته في عمله في الرياض، وكان قد دبـــر لـــه عملا فيها قبل أن يعرف خيانته لما حصل على بكالوريوس التجـــارة. وتباعد الأب عن بقية الأبناء الأنذال. لكن أنت يا بهاء لم تحرر لأحـــد توكيلا ولن يتمكن أحد من امتلاك الأرض في أبي لـــــهو. فلـــم هـــذا

التفكير؟ ... إلا إذا اتضح أن مالكها لا يملكها وأنه باعــــها للآخريـــن وسينصب عليك. ولكنه سجل الأرض في الشهر العقـــاري. وأعطـــاه موظف في الشركة بالرياض ذلك التسجيل للعقد الابتدائي.

وصلوا عجيبة. شاطئ صخري مرتفع عن البحر. تدخلها السيارات بجنيهات ثلاثة. ولم تخرج عائشة هانم مـــن الســـيارة وطفقـــت تقـــرأ الجريدة الصباحية. بينما نزل الجميع ليشاهدوا الشاطئ العجيب. ربمـــا ثلاثمائة درجة حتى تصل إلى القاع، عبر سلم مدرج حلزوني. وعلـــى المرتفع يوجد مقاعد تظللها سقوف. وهناك مقصف يبيع المياه الغازيـــة والمأكولات الخفيفة الساخنة. رفضت عفاف أن تنزل درجات الســـلم، فإذا كان النزول سهلا فالصعود قد يقتل القلب، يوقفه، يشـــل حركتـــه، ولن تجد من يدلكه ليعمل من جديد.

البحر جميل، ولكن العمق رهيب. العمق من قمة الجبل إلى القـــاع، حيث يقبع الشاطئ جميلا. وسلالم كأنها لن تنتهي تصلها بعـــــد قطـــع الأنفاس فما بالك بصعودها؟ ..

وعادوا من جديد إلى السيارة، ورفضوا أن يشربوا شـــيئا، فالميـــاه الغازية معهم في السيارة، واتجهوا إلى شاطئ الأبيض. وفي الطريـــق وجدوا نادي القوات المسلحة، وهو مفتـــــوح للجميـــع، لكـــن دخـــول السيارات ممنوع. ولن تتمكن عائشة هانم من المشي من بداية النـــادي حتى الشاطئ، لذلك قرروا أن ترسو سفينتهم على شاطئ الأبيض.

دخل بهاء بالسيارة، وهناك دلهم واحد من الداخلين بسياراتهم أين يستقرون. كان الاستقرار الأول بعيدا عن الشاطئ، ومن الصعب أن تمشي عائشة هانم إليه بركبتها المعطوبة. ولكن الأقدار هيأت شخصا طيبا. جعلهم يسيرون خلفه، ودخل من خلال باب حديدي في نهاية الفيلات الواقعة بالقرب من الشاطئ، فتحه فتى أسمر اللون، ودلف الرجل حتى استقر في مكان ليس بعيدا عن الشاطئ، وهكذا صار المشي ليس متعبا على عائشة هانم.

استقروا في مكان بالقرب من الشاطئ والأمواج تتلاعب أمامهم. واستأجروا شمسيتين وخمس كراس ومائدة صغيرة. ودفع بهاء ثمانية عشر جنيها. وجلسوا. ثم بدأ الطفلان يلعبان. وأمهما تاتا معهما.

هل هذه هي الراحة؟ .. أن تجلس لا تقرأ ولا تكتب. وتترك ذهنك يتبلد. ويصبح العقل في إجازة. يقال إن الاسترخاء وسيلة لتجديد نشاط العقل. لكن بهاء يفكر. ولعل الجميع يفكرون. إن العقل أداة لا تتوقف عن العمل .. عن الفكر.

بدأت عفاف وعائشة يشغلان نفسيهما بممارسة هواية الشراء من الباعة. قمصان للنوم. فساتين. غلالات. ويمتد الفصال بين البائعين وبينهما. وما يكاد البائع يخسر الصفقة، حتى يرتد مرة أخرى، ويستمر في الفصال. وإذا كان سعر القميص ستة عشر جنيها مثلما أعلنه البائع أول مرة، فيعود ويصبح ثمانية جنيهات في المرة الأخيرة. لم إذا المبالغة في السعر من البداية؟ .. ومر عليهم بائع أخرس لا يتكلم إلا

بالإشارة. بل يكلمهم بالكتابة العاجزة على ورق. وحينما تنتهي الصفقة يستخرج جنيهات عديدة من جيبه ليدفع ما تبقى من خمسين جنيها لعفاف بقية حسابها.

واشتريا حقائب مصنوعة من القماش من أجل دس المشتريات فيها. وقال بهاء ساخرا: وأين ستضعون هذا كله عندما تعودون إلى القاهرة؟ ..

تذكر ربط الحقائب فوق السيارة، وكيف كانت تسقط أو تكاد تسقط، والسيارة تجري دون توقف، ويصرخون أن الحقائب قد تدلت لتنظر إليهم من فوق السيارة. ويقف ويعيد ربطها بإحكام، ولكن الإحكام يجب أن يكون من البداية، وليس مثلما بدأه متهاونا في الربط. ووعد بهاء نفسه أن يلف الحقائب بالحبال طولا وعرضا حتى تستقر ولا تتزحزح أو تتدحرج.

وعاد الدكتور جمعة إلى ذاكرة الدكتور بهاء وهو يقلب في رأسه الكثير من الحوادث. وتذكر زوجه وهي تقول إنه كان نشطا حينما نزل إلى مطار القاهرة الدولي. كان يرفع الحقائب بقوة إلى العربة كأنه شاب في العشرين. ويسير بها مندفعا بين الصفوف. أين ذهب هذا النشاط. إنه حينما زاره في بيته كان نائما. وحينما استيقظ كان وجهه الأبيض قد علاه الاسمرار، ولعل السبب في ذلك لا يرجع إلى المرض لكن من التصييف على شاطئ الإسكندرية وجحظت عيناه وهما جاحظتان فعلا لكنهما تختبئان خلف النظارة. وسألته زوجه كأنه طفل

صغير: من يكون؟ .. قال: الدكتور بهاء. وفرحوا جميعا لأنه لم يميز إسماعيل من بين الزائرين في المرة الأولى. ولم يستطع الانتصاب فعاد من جديد ينام وهو يرتدي جلبابا بنيا ريفيا . وقتها قال بهاء لنفسه: لا أستطيع أن ارتدي الجلباب وأنا نائم . هكذا تعودت على المنامة منذ الصغر. حتى وهو يؤدي العمرة لا يرتدي عند النوم غير المنامة. أما في الأسواق فهو كغيره من الناس يرتدي الثوب الأبيض. يستنكف أهل الديار هناك من القول الجلباب. فالجلباب للنساء أما الثوب فهو للرجال. وقد كان الدكتور جمعة ينزل الأسواق في الرياض بالجلباب، لكنه لم يكن يأتي إلى العمل إلا مرتديا القميص والبنطلون في الصيف، يضيف إليهما البلوفر في الشتاء. لم يره أبدا يرتدي بذلة كاملة.

الفصل الرابع

حكـــايات العقـــوق

حاولت عائشة أن تجر عفاف، وهمـــا جالســـتان صامتتـــان إلـــى موضوع ابنتها المتمردة الذي تتكلم فيه باختصار، وتحاول أن تتلافـــى الحديث عنه. سألتها: ما حكاية بنت علوية؟ ..

قالت عفاف وهي تفيض في الحديث عن علوية بنت خالـــها كأنـــها تزيح عن قلبها هما ثقيلا: إنها مثل الملعونة .. تزوجت علـــى غـــير إرادة أمها من ابن عمها. ولم تهتم بأنه متزوج ولديه ولـــدان. وأنـــها سوف تخرب بيت امرأته. لا أهمية عندها لذلك. تعلقت الفتـــاة بـــابن عمها وطلبت من أمها أن تبارك الزواج منه في السنة الماضية. غـــير أن علوية رفضت بإصرار. وكاد يرتفع السكر لديها وتصاب بارتفـــاع في ضغط الدم لولا أنها أسعفت. وفوجئت أن ابنتها الكويتية قد عـــادت إلى الكويت، وسرقت منها جواز سفرها – جواز سفر علوية – وعليـــه تأشيرة إقامتها في الكويت. كما سرقت رخصة إقامتـــها. واصبـــح لا يجوز لها دخول الكويت إلا من خلال إجراءات طويلة. وكانت رخصة إقامتها تنتهي بعد أربعة أيام. وسقطت علوية مغشيا عليها. ونقلت إلـــى

العناية المركزة. وتم إسعافها. وبلغها بعد أيام أن البنت المتمردة عادت إلى الكويت. وتزوجت من ابن عمها ضاربة عرض الحائط بمعارضات أمها وأبيها المنفصل عن أمها، وهي تعيش في الكويت تحت كفالة ابنتها. والغريب أنه موظف فقير ولكنها تدعي أنها تحبه. وقد خربت بيت أم أولاده لأنه لن يتمكن أن يصرف عليها ويصرف على بيته وأولاده.

سألت عائشة: وماذا فعلت؟ ..

قالت عفاف وهي تعرف أن عائشة بعيدة عن هذه الحكايات لأنها مستقرة في الإسكندرية: حاولت أن تعود إلى الكويت، لترفع قضية على ابنتها العاقة. وتقول إنها ليس ابنتها ولا تعرفها وأنها وجدتها في الشارع وربتها. ولكن المرض حال بينها وبين إتمام إجراءات استخراج جواز السفر والإقامة من القنصلية الكويتية. إن هذا ما قالته لي أختها سنية في أول اتصال هاتفي لها معي.

قالت عائشة معترضة: لكن ذلك يختلف كثيرا عن قصة ابنتك يا عفاف.

قالت عفاف غاضبة: كيف يختلف؟ .. إنها تزوجت مجرما قليل الأدب. ذلك الثعبان طلبني قبل أن يتزوجها وكانت قد رحلت من بيتي بتحريض منه. طلبني هاتفيا وقال لي لقد أذعت في القاهرة أنني فقير وشحاذ وأنني أعيش عالة على ابنتك .. ولذلك ترفضين زواجي منها.

وقلت إن ذلك لو تم سوف يكون على جثتي. إذا جهزي كفنك من الآن فقد تزوجتها. ولم يكن السافل قد تزوجها. لقد عرفنا من أحد أعضاء السفارة القاطنين معنا في العمارة بالرياض أنه تزوجها بعد هذه المكالمة الهاتفية بشهرين. كان فقط يتردد عليها في البيت الذي استأجرته باسمها. وكان لا يزال يعمل بالرياض. بل إن العمل أوقفه ولا نعرف السبب وكان ينتظر أن يغادر المملكة متجها إلى الإمارات. يبدو أن أحد العملاء وعده بأن يعمل عنده في مكتب سفريات مثلما كان يعمل في الرياض. وكان ينتظر أن يبلغه بالتأشيرة. ولو لم يندفع طليقها ويهددها بأنه سيبلغ الشرطة على أساس أنها تستقبل رجلا غريبا في بيتها لما تسرعت وتزوجته حماية لنفسها. لعلها كانت في شك من الاقتران به أو عدم الاقتران. كانت مترددة طوال أربعة شهور. وأنا أقول لك ما قاله ببساطة، ولو أني حذفت منه عبارات السب والقذف والإهانة، إذ لا يجوز أن أنطق بها. هل إنسان مثل هذا يصلح للنسب؟ .. يشتمني ويلعنني وأقبله زوجا لابنتي. المهم بعدها أنكرت أنه سبني أو شتمني. وقالت إنني أكذب. ولو أنها اعترفت لابن عايدة الذي يعمل في القصيم بتلك الشتائم. وادعت أنني أثرت الخنزير البغيض. كأنني أنا الذي طلبته وأثرته. الكلب.

قالت عائشة مبتهجة: الحمد لله أنه لا توجد واحدة من بناتي لديها ذلك العقوق.

نظرت إليها عفاف نظرة ذات معنى كأنما تتهمها بالكذب لأن ابنتها الكبرى تعاملها بقسوة، ولو أنها تضم إليها ولديها اللذين انتظما في الجامعات المصرية ويعيشان معها في الإسكندرية.

قالت عفاف: هناك أيضا ابن عايدة الكبير. انظري ماذا فعل من أجله أبوه .. مصاريف، وأموال، وشراء كتب، وتحويلات. ثم حينما طلب منهما أن يعيشا معه في أمريكا لرعاية ابنته من زوجته المسيحية ورفضا، هاج وماج وقاطعهما. هل هؤلاء أبناء. إنهم زبالة! ..

لم يكن بهاء يستمع إليهما. كان صوت البحر يضيع الأصوات. كان يراهما تتكلمان. ولكن لم يكن يعرف فيما تتكلمان. ولو أنه يعرف أن سيرة ابنته المتمردة دائما على لسان أمها المكلومة.

كانت الفتاة طيبة مؤدبة ثم انقلبت فجأة إلى وقحة تجنبها حتى لا تغلط فيه. كانت الأحوال قد اضطربت بينها وبين زوجها السابق. اتهمته أنه على علاقة مشينة بزوج كفيله. أبلغها سائق هندي كان يعمل لدى الكفيل. وأقسم لها على المصحف أن لا علاقة لها به. كيف تكون له علاقة بسيدة أنجبت سبع أطفال ولم لا يبحث عن واحدة ليس لديها أطفال؟! .. غير أن الملعون زوجها الحالي دمر حياتها أوحى إليها أنه يكذب. كان يعمل زوجها الحالي في مكتب للسياحة يحجز للأفراد تذاكر سفرهم إلى الخارج. وكان يحجز لرئيسها الذي ينتقل كثيرا بين دول الخليج بحكم منصبه الدبلوماسي ومن هنا تم تعارفهما. وبدأ يغزو قلبها بكلماته الناعمة وكان زوجها يسمعها كلمات تؤلمها. بل بدأ يرسل

إليها الهدايا فتخفيها عن زوجها الذي لم يفكر يوما في أن يقدم لها هدية. وقبلت هدايا الذئب، ولعلها أعجبت به. ولما كشف زوجها - طليقها الآن - أن ذلك الرجل يرسل إليها الهدايا، طلب منها ألا تقبلها وألا تستعملها وتلقي بها في القمامة. غير أن الغواية تملكتها فرآها يوما وهي تتجه إلى العمل تضع نظارة سوداء اشتراها لها الذئب لتحجب عنها نور الشمس فحجبت عنها نور الحقيقة، حاول زوجها المكلوم أن يخلع النظارة غن عينيها غير أنها رفضت. فأطلق الكلمة المشئومة التي لم يحاول أن يسحبها: أنت طالق وكررها ثلاث مرات. وفجأة انقلبت الفتاة الطيبة إلى فتاة وقحة. وتمردت على وجودها في بيت أبيها. وأخذت طفليها ورحلت إلى شقة مستقلة دفعت فيها بدل السكن الذي تسلمته من كفيلها.

حاول طليقها أن يعيدها إلى عصمته وقد اقترب موعد انتهاء العدة غير أنها أصرت على الرفض. ولما علم بهاء بذلك. قال: إن هذا من حقه، فاعترضت بوقاحة على أبيها قائلة: أنت أب أنت؟ .. وكاد يضربها لولا أن أمها منعته حتى لا تشتعل النار في البيت. ولما قررت الانتقال من البيت تلكأت فسألها غاضبا: ألم تقرري الاستقلال فماذا يبقيك؟ ..

ولكن تمرد الفتاة لا يساوى في الدرجة خيانة ابن إسماعيل. رباه. علمه. صرف عليه من دمه وماله. تمكن من إيجاد وظيفة له في الرياض رغم أنه غيرها بعد ذلك. وبعد ذلك خانه. الفتاة خرجت عن

الطاعة. أما الولد فقد خرج عن كل القيم. والطاعة في الكبر محمـودة، أما عدم الطاعة فهي مكروهة. وأما الخيانة فإنها تتنـافى مـع الديـن والأخلاق والتقاليد. أنت تحاول أن تخفف البلوى. إن كلاهما في الفساد واحد.

شعر بالجوع فتساءل: هل لديكم سندوتشات. أجبن على الفور: فـي الحقيبة المجاورة لك. أبحث عنها. وخذ ما تشاء.

الفصل الخامس

فـندق الهـباب الأزرق

سبقوه إلى المصعد، وهو يقوم بقفل أبواب الســـيارة. فــرق بيـــن سيارته في الرياض حيث كل الاختيارات فيها آلية، وبين سيارته فـــي القاهرة حيث كل الاختيارات فيها يدوية. بزر واحد تعـــرف أن كـــل الأبواب أغلقت، ولكن في هذه السيارة يجب أن تتعرف على كل بـــاب على حدة وتتأكد أنه مقفول.

وجدهم لا يزالون واقفين وجالسين في بهو الفندق. يلعب الولـــدان وتاتا واقفة بجانبهما تراقبهما. وعائشة وعفـــاف جالســتان. وموظفـــة الفندق مضطربة. ماذا حدث؟ .. المصعد معطـــل. وكيـــف ســتصعد عائشة هانم إلى أعلى. إننا في انتظار أن يأمر صاحب الفندق ومديـــره بتوصيل الكهرباء إلى المصعد.

تأمل بهاء موظفة الفندق المضطربة. صورة طبق الأصل من فتـــاة كانت تعمل معه حينما كان لا يزال موظفا حكوميا لكن عبير تختلـــف عن نادية. عبير قصت شعرها ونادية كانت تتركه مسترسلا. وعبـــير ذات عينين عسليتين عسلا صافيا. بينمـــا ناديـــة كـــانت ذات عينيـــن سوداوين كأنهما ليل بهيم. ردته صورة عبير إلى ذكرياته مع ناديـــة.

كانت نادية تريد الزواج منه رغم أنه متزوج. وكان فارق السن بينهما كبيرا. كان يتعدى الخامسة والأربعين وقتها. وهي في الثلاثين ولم تتزوج بعد رغم جمالها الصارخ .. وصوتها العذب يؤهلها لأن تكون مطربة العصر. كانت تغني لأم كلثوم بين الزملاء ويقفلون عليها باب الحجرة ليستمعوا لها وهي تطربهم. يستمعون إلى صوتها الوضاح الصافي. سألها: لم لا تمتهنين الغناء؟ .. أجابت: لو امتهنته لقتلني أخوتي. ما خلقت إلا لأكون سيدة منزل. ولما سألها: ماذا تريدين مني؟ .. أجابت: أريد أن نتزوج. قال: لكن فارق السن بيننا كبير. أنا لدي ابنة قد تكون لا تساويك في السن لكنها كبيرة فأنت مثل ابنتي. أجابت: إن أبي بلغ الثمانين وتزوج مرتين. وأمي تصغره بعشرين سنة. وقد متعته وأكرمته وأنجبت له سبعا. وتذكر بهاء فورا زوجه التي تكبره بأقل من أربع سنوات. وكانت العلاقة بينهما قد فترت لدرجة أنها كانت تصده عنها كثيرا، ورغم ذلك لم يفكر في الطلاق أو الزواج بأخرى. وكان يتهم نفسه بالجبن لأنه لا يتخذ قرار الانفصال، ويتذكر أنه لم يفترق عن زوجه رغبة أن يحيا ولديه حياة سوية .. ضحى بسعادته من أجل ولديه ولم تثمر التضحية شيئا. ولم يفكر في الزواج من نادية حتى لا تضطرب ظروف حياة ابنه وبنته وكانا لا يزالان في مقتبل العمر ولم يدخلا بعد الجامعة. ورغم أن الجنة فتحت أبوابها بل ذراعيها لتأخذه إلى حدائقها .. فلم يتردد؟ .. وفجأة جاء عقد العمل والسفر إلى الرياض. وقلب السفر حياته. وتحول من رجل مفلس إلى شيخ ثري. ولكنه لم يفكر في الزواج من نادية رغم أنها استمرت

تراسله وتلمح له بالزواج منها. لم يلعب الثراء بعقله مثلما يلعب بعقول البعض ممن يثرون على كبر. وانقطعت الصلة بينهما وعرف أنها يئست منه وتزوجت من زميل لها في عملها الجديد. وانقطعت أخبارها ولم يجرؤ على مراسلتها. وهاهو الآن يراها في نفس الصورة مع بعض التعديلات. فتاة صغيرة لم تتجاوز العشرين ناضجة مثلها. هل يندم لأنه لم يتزوج من نادية ويجرف أمامه كل الظروف والعوائق؟ .. إنه لا يعرف. إنه قارن بين الرجل ذي الزوجتين وكيف يعيش مشتتا والرجل ذي الزوجة الواحدة وكيف يعيش مستقرا؟ .. وقارن أيضا بين الرجل ذي الأولاد الذي يطلق زوجه ويتزوج من شابة كيف يكون حاله بعد عشر سنوات والزوجة الشابة تلعب به والمطلقة تطارده بالقضايا وتدفع أولاده إلى كراهيته. وكيف يتمتع في بعض الأحيان ويتعذب في أحيان أخرى. ولم يصل إلى نتيجة. إنما هو فكر يدور في رأسه ولا قرار يتخذ.

سمع عفاف تقول: إن المصعد عاد للعمل.

أخيرا رأف صاحب الفندق بهؤلاء العجائز. ودخل حجرة تحت السلم، ووضع إصبعه على زر، فحرك الكهرباء في المصعد. وخرج وهو يرتدي سروالا صيفيا قصيرا، وقميصا أبيض يتدلى على السروال. وشعره الأبيض مثل شعر بهاء. لكن دب فيه الصلع. ولم يكن شعر بهاء الأبيض قد دب فيه الصلع بعد. وقال بهاء: إنه فندق الهباب الأزرق.

أصر بهاء على تسميته حينما لم يجد ماء يستحم به، ليجرف العرق الذي ملأ جسده من أثر الحرارة التي تواجهه وهو يقود السيارة. غير أنه لم يجد الماء، فانتابه الغيظ ولم يجد له دواء يعالجه به. وصرخت عفاف أن المكيف لا يعمل. حاول بهاء أن يطلب الهاتف الوحيد الموجود في بهو الدور الثالث غير أن أحدا لم يرد عليه. وضع يده على زر المصعد يطلبه، فلم يصعد، وظل قابعا في الدور الأرضي، فاضطر أن ينزل إلى مكتب الاستقبال. سأل هناك عبير: ألم تأخذي سبعين جنيها مقابل تشغيل المكيف سبع أيام؟ .. قالت: لم؟ .. ألا يعمل؟ .. ثم قالت: سيعمل. وسأل: والماء؟ .. قالت: وماذا عن الماء؟ .. قال لا يوجد ماء فكيف نستحم؟ .. قالت: إن ذلك لا يد لنا فيه. قال وهو يصعد إلى حجرته: أشك. لم يبق طويلا ليتأمل عبيرا. إنها تذكره بالماضي وهو يهرب من ذكرياته، رغم أنها كانت لذيذة وتشعره أن امرأة رغبت فيه ولكنه ضيعها.

لما ظهر صاحب الفندق لم يواصل الحديث مع عبير، فهي موظفة لدي رجل غريب الأطوار. يفتتح فندقا ويعامل النزلاء بقسوة فماذا يكون موقفه لو رآه يتكلم معها. يبدو أن أخلاقه وصلت إلى القاع وقد يحتك به لوقوفه يثرثر معها. وبعد انتظار. جاء الماء. وتحركت الكهرباء في المكيف. دخل بهاء ليستحم. وبدأت عفاف تخلع ثيابها. لا تخلعها عادة أمام بهاء رغم أن الزواج مضي عليه أكثر من ست وثلاثين سنة. ربما تخشى أن يعتقد أنها تغريه. وهي أصبحت لا تميل إليه. ربما الهرمونات قد اضمحلت لديها فصدت نفسها عن الرجال.

إنهما يعيشان معا كما لو كانا أخوين. منذ زمن بعيد كانت الأخوة يفسدها ممارسة الحب. أما منذ زمن قريب فالحب يفسد الأخوة. فالرغبة فيه تنشئ العذاب لأن الطرف الآخر لا يستجيب. وإذا بدأ العذاب في استعمال سوطه فيجلد الأخوة. لقد بدا معها نهما في سنوات الزواج الأولى حتى جعلها تكره الجنس. وكان جسدها ضعيفا عليلا ورأسها المصدع دائما سببا في إحجامها عن الجنس. وكان لا يشغله إلا الجنس. يرتب له منذ الساعة الثانية بعد العودة من العمل، فزادها ذلك مقتا له. ولما وجد منها صدا متواصلا وقلة في الاستجابة اتجه نحو الدراسات العليا يغرق نفسه في دروسها وأبحاثها. يواصل المذاكرة ساعة بعد أخرى وينشغل بالتلفاز حتى منتصف الليل. وصار له وقت مخصص لمراجعة الدروس مع الولد والبنت. وينالها فقط يوما في الأسبوع. وتبدو وهي تعطيه هذا اليوم – بل الساعة أو الدقائق الخمس – كأنها تتصدق عليه. تبدو زاهقة. ملولة. مكتئبة. ثم تنفرج أساريرها بعد أن ترتدي ثيابها كأنها كانت في مشوار مجهد. ولعلها استغربت أنه لم يحدث بينهما طلاق رغم نفورها الدائم، ورغم ما كان يضيق على حياتهما من الفقر والديون ومطالب الطفلين. ولم تكن تعرف أنه لا يميل إلى تحطيم أسرته وتفكيكها. وانشغلت هي بطفليها ولا أهمية لها في الطلاق فهي سيدة نفسها تعمل ويمكن أن تستمر حياتها دون زوج. وانشغل هو بدراساته العليا مع التدريس والمراجعة لطفليه. ورضيا بالوضع وتحمل هو العذاب ولم يكن في إمكانها أن تقدم له غير العذاب لأن الجنس يتعبها. يشقيها وهي المريضة بلغط في

القلب وضعف في الصدر وصداع مزمن لا علاج لـــه. جربــت كــل أنواع المسكنات لكن الصداع النصفي - قدر بعض النساء - لم يكن له شفاء. حينما يداهمها تداهم زوجها الرغبة فيـــها فيتشـــاجران. وتقفــل عليها باب حجرة نومهما، وتطفئ النور، وتحاول أن تنام في الظـــــلام الدامس ساعة أو ساعتين حتى تنتهي النوبة العارمـــة. وهـــو يتعــذب خارج حجرة النوم، مستسلم للعذاب. يريدها وهي ترفضه. يتألم وهـــي تتألم من شيء آخر.

انتهى بهاء من الاستحمام، وانتهت من ارتداء ثياب البيت. وجلسـت تستمتع بهواء المكيف. وتلعن الحر اللافح في الخارج وتستغرب أنـــها في مصيف. وتقول: حر هذه السنة لم يحدث من قبل. ثم تسأل: تـــرى أبلة عائشة ماذا تفعل في هذا الحر.

يقول: بخيلة. لا تريد أن تمتع نفسها فيما بقى لــــها مـــن العمــر. تصرف ذات اليمين وذات الشمال على ولدي بنتها .. وتبخــــل علـــى نفسها بسبعين جنيها في أسبوع.

تقول أختها الصغيرة: إنها بخيلة حتى قبل أن يموت زوجها. كـــانت ابنتاها تحملان لها الهدايا من الكويت. وهي تخزنها. فساتين. قمـــاش. آلات. لا تستفيد من الفساتين. ولا تفصل الأقمشة. ولا تســتعمل الآلات رغم أنها توفر لها الوقت والجهد.

جاءت تاتا لتقول: الحجرة الداخلية حـــر للغايـــة. وعدنـــي عـــامل بإحضار مروحة أخرى. لكنه لم يف بوعده. قال ثقي بي. لكن ضاعت هذه الثقة.

قال بهاء معلقا: يبدو أن صاحب الفندق والعاملين معه نموذج واحـد لا يتغير عملهم استفزاز الضيوف. كأننا نستغلهم. ثم قال: متى تنتـــهي هذه الأيام، ونذهب إلى الإسكندرية. لقد حدث لي ملل فوق الحـــد. لـــم أعد أطيق البقاء هنا.

قالت عفاف: أقرأ الجريدة أو الكتب التي أحضرتها يذهب الملل.

قال بهاء: في هذا الجو المعكر .. كيف أستطيع؟! ..

الفصل السادس

المكـــيـف

أوصى طبيب العظام الثاني السيدة عائشة أن تلف رباطا ضاغطـــا حول ركبتها، وأن تضع ركبة ضاغطة حول الرباط. واشترت الأدويـة التي كتبها لها ومعهما الرباط والركبة. وانتظمت في جرعات الــدواء. غير أنها أهملت أن تضع الركبة حول ركبتها. وانتقدها بهاء لما عرف بالأمر. وقال لها: السنة الماضية أيضا جزعت قدمك وكـــانت تتـــورم حينما تهملين وضع الرباط الضاغط حولها ثم ينكمش الـــورم حينمـــا تربطينه. ألم تأخذي عبرة من ذلك؟ ..

قالت: يضايقني. ويوقف حركتي.

قال بهاء: تحملي من أجل شفائك. كنت قد وعدت أن تضعي الركبة على الرباط الضاغط، لكنك تكتفين بالرباط الضاغط. وفي هذا خطـــر عليك. لأنك بذلك لن تشفي أبدا.

قـــالت: أنـــا فـــي المســـاء لا أتحمـــل وأفـــك حتـــى الربـــــاط الضاغط. واخلد للنوم لا أستطيع أن أنام بهما.

ولم تكن تعرف أن النوم يطير من عينيها بسبب حر الحجرة الخـــانق. ولم تكن المروحة تفعل في الجو شيئا. وكانت ابنتها وولداها ينـــامون فـــي الحجرة الصغيرة الملحقة بالحجرة الكبيرة. وطلبت مروحة هي الأخــــرى وبعد لأي أحضرها لها عامل في الفندق بصفة سرية كأنه يــــهرب إليــها مخدرات، وذلك حتى تسترد الثقة في عمال الفندق. خففت المروحة قليـــلا من نار الحجرة الضيقة، وكانت تاتا تنام بين الطفلين لترضي كلا منــــهما. الولد جهة الشمال والبنت جهة اليمين حتى ســـقط الطفـــل علـــى الأرض فأدخلته مكانها وهو يبكي من سقطته، ثم دلف إلى النوم بعد أن كف عـــن النحيب. ولم تكن تاتا قادرة على أن تطلب من أمها حجرة مكيفـــة. يكفـــي أنها دفعت ثمن إقامتها في الفندق زهاء ثمانية أيام بسبع ليال. ولم يحـــاول زوجها البخيل أن يساهم ولو بنصف التكاليف مع أمها. اســـتمرا أن تدفـــع العجوز ولا يثقل كاهل جيبه بشيء. ولما سقطت أمها، وجبس الطبيـــب ذو الأهداف التجارية ركبتها، كانت على وشك أن تؤجل الذهاب إلى مرســـى مطروح إلى الخامس والعشرين من الشهر، ووقتها وعدهـــا زوجـــها أن يذهب معهما. غير أن فك الجبس واللجوء إلى الرباط الضـــاغط، جعـــل السيدة عائشة لا تريد لزوج ابنتها أن يرافقهما لأنها لا ترتاح إليـــه، فـــهو يحرم ابنتها من أشياء كثيرة، ولا يلبي طلباتها إلا بالضغط عليـــه. كـــانت تريد منه أن يترك شقة والده الصغيرة المجاورة له، وذلك لأنـــها لا تســـع الأسرة كاملة خاصة بعد أن رزقهما الله بالطفلين. وبالضغط والزن علـــى الأذان اشترى شقتين تتكون كل واحدة منـــهما مـــن حجرتيـــن وصالـــة، وجعلهما تنفذان إحداهما على الأخرى، وطلب منها ألا تذكر ذلـــك أمـــام

والده حتى يلبي طلبه في شقة أوسع يبنيها له تنفعهما أو تنفع الطفلين في المستقبل. وكان أبوه قد وعده بشقة واسعة لكن سوف في وعده.

فكرت تاتا في الطلاق من زوجها أسوة بما قامت به ابنة خالتها عفاف، لكنها تراجعت خوفا على مصير الطفلين. ابنة خالتها غنية، وتركت طفليها لطليقها. أما هي فلا تستطيع الاستغناء عن طفليها، وليس لديها وظيفة تتعيش منها مثل ابنة خالتها، وستكون حملا ثقيلا على أمها ومعها ولداها. فضلا عن أن ابنة خالتها تزوجت بعد ستة شهور من الطلاق، وسوف تفقد طفليها إذا ما تزوجت، ولا تأمن لهما حياة كريمة مع أبيهما البخيل، إنها تناكفه في سبيل مصروف البيت، فكيف يمكن لطفلين في عمر الزهور أن يناكفاه. الطفلة لم تتجاوز الخامسة والطفل لم يتجاوز الثالثة من العمر. حينما فكرت في الطلاق، وضعت الأمر أمام جد الطفلين، وأخبرته أن ابنه لا يصرف على البيت، رغم أنه يتقاضى راتبا كبيرا، ولولا أمها لكانت قد تضورت وطفلاها جوعا. وطلب منه الجد أن يكون مسئولا عن أسرته، وأن يسلمه كل شهر مصروف البيت ليسلمه لزوجه. وأمام ضغط الأب لم يحاول الابن أن يتملص من المسئولية. وكان قد عمل بمرتب كبير في إحدى شركات القطاع الخاص التي تبيع المنتجات الهندسية. ولم يجد بأسا من أن يدفع لها خمسمائة جنيه في الشهر، وأن يدخر أكثر من ألفين جنيه ويضيفها إلى مدخراته، مع التزامه بدفع قسط الشقة التي اشتراها سرا، ولا يعلم بها سوى زوجه وأمها.

ولعل أمها كانت تمدها بالمال لأنها هي التي أصرت على أن تتزوج من ذلك الرجل، خشيت أن تداهمها العنوسة، فألقتها في حضن

الرجل البخيل. وكانت تظن أن الولد ليس مثل أبيه. ولكن تبين لها أنه صورة مكررة منه. وأوصت ابنتها أن تتبع معه ما تتبعه زوجة الأب من ضغط مستمر للصرف على البيت.

انطفأ المكيف فجأة في الساعة الثانية قبل الفجر. وطفق العرق يصب من جسدي بهاء وعفاف. غير أن النوم كان عميقا فاستطاع الحر الشديد أن يعمق النوم. بل بدا أنه قتلهما. وتنبه بهاء في الساعة السادسة أن اللهب قد سرى في الحجرة، فانتشل نفسه من مقتله، وخرج من الحجرة غاضبا لينزل إلى الدور الأرضي باحثا عن صاحب ومدير الفندق ليعاتبه أو يؤنبه أو يتشاجر معه. ووجد المصعد معطلا، هو الآخر. ياله من فندق وياله من رجل. ورآه يتجول في مدخل الفندق فصاح فيه: أليس حراما إيقاف المكيف من الساعة الثانية إلى السادسة حتى الآن.

قال الرجل متخاذلا، وصوت بهاء الجهوري يرتفع فيهزه: حاضر .. كان هناك إصلاح فقط.

وهمهم بهاء قائلا: أربع ساعات إصلاح .. هذا لا يصدق.

استطاع بهاء أن يعود إلى النوم بعد صعوبة، بعد أن دخل الحجرة ووجد الكهرباء تسري في المكيف، والجو اللطيف الساحر يملأ الحجرة بهجة. هل من الممكن أن نستغني عن المكيف عند العودة إلى أرض الوطن؟ .. يكفي أنه يكلف الكثير في شهر ونصف فماذا لو استمر يعمل العام بأكمله؟ ..

الفصل السابع

حمـــامات كلــيوباترة

كلما ركب بهاء السيارة يشعر بالخطر. صوت البنزين يزمجر. ثـــم صوت الموتور يصرخ. الأصوات تدل على خطر يـــترصد لكنـــه لا يبالي به.

الخطر في الخارج، والعذاب في الداخل. داخله يغلي من صــــاحب الفندق. والملل يعشش معه يقفز في صدره كقرد قميء. وهناك عــذاب آخر يعانيه تسببه زوجه النافرة. تعيش معه كأخت له. كأنما تقول لـــه: إن كبر زوجك كوني أخته. ويقول لنفسه: دع الهموم وابتسم فالابتســـام يأتيك بالدنيا. إنه في انتظار الفرج من هذا العذاب فمتى يأتي؟ ..

قاد السيارة، وطعم زيت الفول قادم إليه من معدتـــه يثـــيره. فـــول الفندق لا يزال يهيج أمعاءه. ورفضت زوجه أن تأكل البيـــض مثلـــه. وقالت: لن آكل البيض بعد اليوم. وقالت عائشة: ومن سمعك. ولكنـــهما حجزا البيض للولدين يأكلانه عند الشاطئ.

وفي الطريق إلى شاطئ كليوباترة. روت تاتا رحلتها الأولى إلـــى مرسى مطروح مع زوجها. استغربت عفاف حكاياتها في سرها: كيف تدعي أنه بخيل إذن؟ .. البنت تتجنى على الرجل. استمعوا إليها ولـــم

يعلقوا بما يدور في أنفسهم. كانت وقت تلك الرحلة الطفلة صغيرة لم تتجاوز السنوات الثلاث. وهي حامل في الطفل.

سأل بهاء: كيف وصلتم إلى حمامات كليوباترة؟ ..

قالت: ركبنا سيارة أجرة.

لم يتوقف الدكتور بهاء عند حمامات كليوباترة. رفض الوقوف لزحام السيارات في الطريق الضيق. وعبر السيارات المتراكمة على الطريق بسرعة بطيئة حتى وصل إلى ما يسمى شاطئ كليوباترة.

قالت تاتا في الطريق: يقال إن مكان الحمامات كانت كليوباترة تستحم. كانت عائدة من رحلة بحرية، فرست سفينتها عند هذا الحمام. ونزلت لتستحم، ثم أصبحت عادة تتبعها.

سأل بهاء: وكيف عرفت ذلك؟ ..

قالت تاتا: قالوا لنا ذلك منذ ثلاث سنوات.

سأل: ألم تأت خلال هذه السنوات الثلاث مرة أخرى؟

أجابت بسرعة: لا ..

قال ضاحكا: هذا يثبت فعلا بخل السيد زوجك.

قالت: ذهبنا إلى الإسكندرية كثيرا. عند ماما.

قالت عفاف: وهذا لا يؤكد البخل. يا ابنتي لقد متعك الرجل كثيرا فكيف تنكرين أفضاله؟ ..

قالت تاتا ساخرة: أفضاله تأتي متباعدة ملوثة بـــالمر. أيـــن هـــي أفضاله؟ .. الشقة شقة أمي. والمصروف مصروف أمي. والمتعة عند أمي. والفسح محرمة. وهو أين هو؟ .. لا وجود له.

وقف بهاء عند الشاطئ، وانصرفـــوا يتمشـــون لاختيـــار مكـــان لشمسيتين وخمس كراس ومائدة صغيرة لوضع الحاجيات عليها. ودفـع بهاء كل النفقات. وقال لنفسه: يبدو أن علي واجبا أن أدفع كـــل يـــوم ثمانية عشر جنيها. غير أنه لم يصرح بذلك علنا.

وخلع ثيابه، وكان مرتديا لباس البحر. ونزل إلى البحر، مشى فـــي المياه الزرقاء، حتى إذا ما وصلت إلى منتصف طوله، اندفع ســـابحا. ونزلت تاتا بملابسها المحتشمة كاملة وقد ارتدت قبعة من خيـــوط ذات نسيج أصفر، وولداها يصحبانها وقد ارتديا ملابـــس البحـــر وطفقـــوا يسبحون بجوار بهاء. وعام على وجه الماء. ولم يكن هناك شيء يفعله غير أن يهيم بفكره في الأحداث الماضية. لم يمض بعد يومان. والملـل يتسرب إلى القلب. متى تنتهي هذه الليالي الباقية .. متى يعـــود إلـــى العمل؟ .. لا يزال هناك وقت طويل. لو كانت الإجازة أسبوعا لكـــره الإجازة ولطالب بزيادتها. ولكنها شهر ونصف ومل من بداياتـــها. لا القصر ولا الطول يعجب صاحب الإجازة. وهاهو الدكتور جمعة يـأخذ إجازة غضبا عنه. هل سيتماثل للشفاء؟ .. إن ابنتيـــه تخرجتـــا مـــن الجامعة. ولم يبق إلا ابنه في آخر سنوات الدراسة الثانوية. رزق بـــه بعد توقف طويل عن الإنجاب جاوزت السنوات الخمس. لم يكـــن لـــه شاغل إلا التدريس لهذا الابن. وليس له حديث إلا عن إنجازاته معـــه.

وليس له كلام إلا عن لعبه وغرامه بالكرة. كان يقول إنه لم يتعب مع البنتين ونال كل التعب مع ذلك الولد. إنه ذكي ولكن يعشق اللعب. لقد قرر أن يهبه إلى الكلية الفنية العسكرية، هي التي سوف تعلمه النظام والطاعة والمحافظة على البدن. لن يكون مريضا مثل أبيه. ماذا يفعل ذلك الولد لو أن أباه أقعده المرض؟ .. إن ذهول الدكتور جمعة يقلقه؟. إذا ما مات الدكتور جمعة فسوف يضر ذلك الولد إلا إذا انتبه إلى نفسه وعرف أنه لم يبق له غير الشهادة، هي سلاحه الوحيد في الحياة. ولكن البعض من الأبناء لا يقدر ذلك، فهاهو ابن إسماعيل زميله السابق في العمل كان ولدا لاهيا. إنه ابنه الصغير ولم يكن يهمه أن ينجح أو يرسب مادام أنه يجد طعامه ومأواه. رسب في أول سنة في الثانوية العامة عندما كان في كنفه في الرياض. ثم نجح في كل العلوم فيما عدا المجموع. وأعاد السنة ليحسن المجموع ولم يحصل بطبيعة الحال إلا على خمسين في المائة من الدرجات. وعاد إلى القاهرة. ولم يكن نصيبه إلا مركز تدريب مهني ويبدو أنه فشل فيه. فقد انقطعت عنه موارد والده لانفصاله عن أمه. وكان يمكنه أن يتفوق وهو في الرياض فقد كانت ظروفه هناك حسنة، وأبوه مرتبه كبير. وكان يمكنه أن يتفوق في دراسته مثل أخيه الكبير، لكنه أنخرط مع شباب ضائع، فعلموه الضياع، وشرد معهم. وبدأ يدخن من وراء أبيه، وصار مجلسه الدائم في المقاهي يدخن النارجيلة، وحاول أبوه أن يقومه، فما كان منه إلا أن هرب زهاء عشرة أيام، وعاد حسيرا، مفلسا جائعا لا مأوى له يستعطف أباه أن يرأف بحاله. ورفق به الأب، واستمر ينفق

عليه مكرها، وهو يفتح الكتاب ولا تطاوعه نفسه على القراءة. وصار معه أبوه إلى آخر المشوار حتى لا يشبعه الناس لوما في يوم من الأيام أنه تخلى عن ابنه في محنته ولم يسنده فيها. محنة الفشل والضياع.

أفاق الدكتور بهاء من تأملاته، وقد نسى أنه على وجه الماء. وأنه الآن يغرق. انتشل نفسه من القاع ليطفو من جديد على السطح.

وهناك على الشاطئ كانت عائشة هانم تتأمل ركبتها التي تورمت، وعفاف تعاتبها: ذلك نتيجة أنك تركت الركبة واكتفيت بالرباط الضاغط. بل تحلينه ليلا قبل النوم.

تقول عائشة محاولة أن تنتهي من موال العتاب: عندما أعود سوف اربطه وأضع الركبة عليه.

"يبدو أن الإنسان حينما يكبر يكون عنيدا. ويأبى الدواء ويستمرئ الداء." هكذا قالت عفاف لنفسها.

فوجئت تاتا، وهي تخرج وولداها من الماء، أن أمها تريد أن تعود. كان وجهها الأبيض قد اصبح كالبطيخة الحمراء، وعيناها الخضراوان قد تحولتا إلى عينين حمراوين كعيني ساحرة من ساحرات الأرض الوارد ذكرهم في الأساطير. وأشارت إلى ورم ركبتها، فامتعضت تاتا لأن أمها لا تسمع كلام أحد. تسد أذنيها عن النصيحة، ولا تقتفي إلا أثر هواجسها، وتتألم بعد ذلك علنا. عادوا إلى الفندق، والسيارة تترنح في الطريق الرملي المليء بالزلط والطوب. وحاول بهاء أن ينفذ من طريق مختصر فتعرض له شرطي وأمره أن ينحرف يمينا ثم بعد ذلك

يعود من جديد إلى طريق يتجه به إلى مرسى مطروح. في ذلك اليوم تغدوا سندوتشات لنشن، كانت قد أعدتها تاتا قبل الذهاب إلى الشاطئ، ومعها سندوتشات جبن وزيتون وأخرى بالحلاوة. واستحما بعد أن انتظروا وصول الماء. وصرخ بهاء في الهاتف الوحيد الموجود في ردهة الدور الثالث. وطلب من عبير أن تبث الكهرباء في المكيف. وقالت عبير قولتها المشهورة: حاضر. وبعد لأي جاءت الكهرباء مسرعة إلى المكيف وبدأ يعمل. يبدو أن تشغيل الكهرباء عند صاحب الفندق يثير لديه حساسية. وكلما تحركت أثارت لديه هرشاً دامياً. ولعله يظن أننا نترك المكيف يعمل ونحن في الخارج.

كانت لا زالت صرخات تاتا في ولديها عالية. تُسمع من حمام حجرتها. ذي النافذة الصغيرة العالية المفتوحة بلا شباك. وهذه الصرخات – في رأيها – تدل على حنانها الزائد عليهما. إنها على الأقل تعيش معهما، وليس مثل هذه البنت التي فضلت متعتها على ولديها. قررت أن تتزوج رجلاً غير والد طفليها حباً به وغراما فيه. على أن تبقى مع والد طفليها الذي كرهته بعد حب معلن عميق. هل كان من اللازم أن تبقى معهما حتى يكبرا وينتهيا من تعليمهما وتتزوج بعد ذلك إذا شاءت؟ .. ويبدو أنها قدرت أنها ستكون في ذلك الوقت قد تجاوزت الأربعين من العمر وغير مرغوب فيها. ولا يعقل أن تبقى عشر سنوات دون رجل، هي التي ذاقت الرجل زهاء سبع سنوات. إن عمتي مات زوجها وهي في شرخ الشباب، ولم تفكر في الزواج في

مقتبل العمر، وأخذت تربي أولادها الثلاثة، ترملت في سن الثلاثيـــن، وعاشت حتى إلى ما بعد الخامسة والثمانين. وهل بنات اليوم مثل نساء الأمس؟ .. إن الأمر اللغز بالنسبة لي هذا التدني الذي ســـقطت فيــه. انتقلت من رجل ذي مستوى مقبول إلى رجل أدنى منه مستوى. فكيف قبلت ذلك؟ .. هل حقا عين الحب عن كل شيء كليلة؟ ...

تمشى بهاء وتاتا وولداها حتى شارع إسكندرية لشراء مـــا أملتــه عليهما عفاف من مطالب. كانت تريد أن تغسل فطلبت حوضـــا مـــن البلاستيك. وكانت تريد أن تتزود بمأكولات فأملت على تاتا ما تريــد. ولم يذهبا بالسيارة. فضلا أن يتمشيا. ولم يكن المشـــوار بعيــدا لكـــن الرطوبة عالية. أضعفت صدر بهاء فمشى كأنه يترنح. وتذكـــر فـــي أعوام مضت كان قد ذهب إلى بورسعيد، ولم يتمكن من النوم بســـبب ضيق عنيف في التنفس، أعقبه تعب شديد في الصـــدر، ولـــم تنفـــرج الأزمة إلا حينما دخلت السيارة الإسماعيلية، فعاد التنفس إلى الصـــدر براحة ودون عناء وكأن شيئا لم يكن.

اشتريا الأشياء، وعادا بعربة يجرها حمار. اشتعلت الســـعادة فـــي قلبي الطفلين. وظهرت البســـمة علـــى وجهيـــهما. وتاتـــا منشـــرحة لانشراحهما. وسأل بهاء: هل ركبت من قبل هذه العربـــة؟ .. حينمـــا كنت في مرسى مطروح. قالت: نعم. سأل: وكم دفعت؟. قالت: ربمـــا جنيه لكن الأسعار ارتفعت الآن. وأعطى بهاء الرجل ثلاث جنيـــهات فأخذها وانصرف. وكان قد أنزلهم في تلك الأرض الخـــراب الواقعـــة خلف الفندق أو بجانبه بالأحرى. حتى يتفادى الدخول إلـــى الشـــاطئ

حيث لا يجوز أن تمر فيه عربة في ذلك الوقت من الليل. وعرف بهاء كيف يدخل من الخلف إلى الفندق دون اعتراض من أحد إذا ما استعمل السيارة ليلا. ودخلوا من تلك الأرض الخراب كأنها طريق غير مسفلت إلى الفندق. وهناك طريق آخر بالقرب من شاطئ البحر ممنوع المرور فيه في ذلك الوقت.

هلل الكابتن وليد، وهو يحمل الأطباق إليهم. سمك مشو وقليل من البطاطس وأرز سمك. وليمة جديدة بدلا من المكرونة والدجاج. وكان منشرح الصدر لأنه يقدم ذلك الطبق الجديد.

وكانت عائشة هانم قد حقنتها الزبونة الجديدة في الفندق بحقنة منع الارتشاح. ودخلت المطعم تتوكأ على عصاها. ولا تزال عفاف تسندها وهي تسير. وصاحا حينما رأيا السمك. وابتسم وليد كأنه انتصر في معركة.

تاتا دائما تصرخ وتصيح في طفليها حتى يتأدبا. الطفلة تبكي على الفور. والطفل يرتعب. تجلسهما بجانبها على كرسي واحد وبجانبها أمها. وفي المقابل يجلس بهاء وعفاف. ينتظرون جميعا أن يصل الكابتن الذي عرفوا أن اسمه وليد. يحمل الأطباق الأخرى ليضعها أمامهم. وصاحوا جميعا: سمك أرز .. أحمدك يا رب

تقليدا لتمثيلية على بابا حينما رأي الذهب والياقوت والمرجان في مغارة اللصوص فقال على الفور: أحمدك يا رب. أو لعله أخوه قاسم لا يذكرون، سمعوا التمثيلية وهم أطفال فكيف يتذكرون؟ ... أبدوا

الفرحة من المفاجأة كأنما لم يشاهدوا السمك منذ سنين. مع أن الدكتور بهاء يأكل السمك أسبوعيا في بيته، ولكنها دواعي الفكاهة والمرح مع الكابتن.

يرتبك الكابتن من فرحتهم، لكنه يتماسك ويضع الأطباق ويمضي. وتقوم تاتا بإطعام طفليها تحت وقع الأوامر والشخط والصراخ. وبهاء يتأفف. ألا تتمكن أن تضبط أعصابها خاصة أنهم في مطعم رغم أن الرواد قليلون لكن هناك رواد. وتضع عائشة جزءا من سمكتها الخاصة في طبق تاتا ليأكل طفلاها. وتضع عفاف أرزها في طبق تاتا أيضا. وهي تحاول أن تمنعها لكنها تصر. وعائشة هانم تقول: لا أحب السمك المشوي. أنت تعرفين. وبينما بهاء مستغرق منهمك في تناول وجبته.

الفصل الثامن

عنـد شــاطـئ روميـل

أشارت تاتا لبهاء إلى الاتجاه الخاص بشاطئ روميل. بالقرب منــه نزلت هي وزوجها في سالف العصر والزمان فــي فنــدق قريــب أو بالأحرى شقق مفروشة.

وعند الشاطئ جلسوا تحت شمسيتين وخمس كراس ومائدة صغـيرة يضعن عليها حقائبهن . ودفعت هذه المرة السيدة عائشة ثمانية عشــر جنيها. وجلست هي وأختها عفاف. ونزل بهاء وتاتــا وولداهــا إلــى البحر. ولو أن ذلك المكان المائي لا يمكن تسميته بذلك إنما هو جــزء من خليج مرسى مطروح فالمياه فيه بلا موج.

فكرت عفاف في ولدي ابنتها المارقة. لو لم يذهبا الولدان إلى أمهما في دولة الخليج لكانا الآن يسبحان مع ولدي تاتا. أخيرا طلبتهما للسـفر على حسابها. وكانت قد رفضت أن تتحمل أعباء تذكرتيهما. واتــهمت أمها بأنها تحرض طليقها على عدم إرسالهما إليها. منذ زمن اتفقت مع طليقها على أن يوافيها بالولدين عند انتهاء الدراسة. غير أنها تلكــأت هذه السنة. طلبتها ابنتها وهي في الرياض، وهي في زيــارة جديــها، ومعها أخوها وأبوها. سألتها البنت الصغيرة: متـــى سترســلين إلينــا

التأشيرة والتذكرتين؟ .. تلكأت في الكلام ثم سألتها: ألا يمكن أن يتأخرا قليلا حتى تعود من رحلة لها في ألمانيا وفرنسا مقررة على عقد المشاركة في الوقت؟ .. قال الأب حينما سمع ذلك من ابنته: لا يمكن. يجب أن أطمئن عليكما بالسفر ولأن الخادمة الفلبينية سوف تسافر أيضا إلى بلدها. (وكانت البنت قد استخدمت هذه الفلبينية أثناء زواجها ثم استمرت تستخدمها بعد طلاقها وتركتها لدي طليقها لما سافرت إلى زوجها الموعود في الإمارات). سألت الفتاة الضالة: ألا يمكن لوالدكما أن يرسلكما بعد أن يستخرج لكما تأشيرة دخول ألمانيا وفرنسا معي؟ ..ولما نقلت الطفلة الكلام إلى أبيها، قال الأب محدثا ابنته: إن ذلك مستحيل لأن السفارات تطلب ثلاث تذاكر لأن الأب سيكون مرافقا لهما ويفترض أنه مسافر معهما بالإضافة إلى استخراج شيكات سياحية عليه أن يقدمها. وهذا ليس في مقدوره وقد يحصل على التأشيرة أو لا يحصل عليها. قالت كأنها كانت تعرف ذلك مقدما: فعلا. ثم قالت لابنتها: إذن اتركيني أفكر.

حاولت الابنة الضالة أن تتصل به في عمله لتثنيه عن قراره في أن يأخذ الطفلين معه إلى مصر أثناء إجازته السنوية، فتبادلا السباب والاتهامات.

وطلبت الابنة الضالة طفلتها في بيت أبيها. وطلبت منها أن تتمرد هي وأخوها على أبيها. تصرخ .. تبكى .. تمتنع عن الطعام. وطلب منها زوجها الرجيم أن تمتنع عن الذهاب إلى مصر والإلحاح على المجيء إلى الإمارات. وغلفا كلامهما بألوان من السباب والشتائم للأب

وأختيه ولعائلته. واستمع الأب إلى كل ذلك من خلال تسجيل وضعه في مكان خفي لا تصل إليه يد الطفلين. كان قد وضعه للخادم الفلبينية لشكه في سلوكها ومحاولاتها الاتصال ببعض الرجال فسمع ما لذ وطاب من مثقفين متعلمين في حقه وحق عائلته. وطلب حماته السابقة جدة طفليه وأخبرها بما سمع وأبلغها عن التحريض وحجب الشتائم المقذعة. ولم يهتم بشتائم طليقته فيه إنما اهتم بسباب زوجها الفاضل ذي اللسان النظيف. إن شتائمه فيه وفي أسرته لابنته الطفلة تنبئ عن تربية في الشوارع والحواري وليس في البيوتات الراقية. وقرر أنه لن يسمح للطفلين أن يذهبا إلى طليقته أبدا. وطلبت الابنة أمها لتضع حلا للمعضلة. واقترحت أن يرسل طليقها الطفلين من القاهرة إلى الإمارات على حسابه. وترسلهما بعد ذلك إلى الرياض على حسابها. أخبرنها الأم بما حدث من استماع الأب إلى تسجيل للشتائم التي أطلقتها وأطلقها ذلك الرجل الذي تعيش معه، فاحتدت الفتاة وطلبت منها ألا تأخذ ولديها إلى فيلتها في الساحل الشمالي إذا أرادت التصييف هذا العام حتى لا يلحق أبوهما بهما ويتمتعون بالفيلا. فأجابت الأم إنها لن تذهب لا هي ولا الولدان. وأن طليقها ليس في حاجة إلى هذه الفيلا لأنه تملك في ٦ أكتوبر في العجمي بالإسكندرية شقة وأن تلك الفيلا أصبحت لا تهمه. قالت الفتاة الوقحة: أحسن. قالت لها أمها: سوف أسلم مفاتيح الفيلا إلى أختي عايدة في القاهرة. ولن استثني منها واحدا. (وكانت البنت قد وكلت خالتها في إدارة أعمالها في مصر). قالت بوقاحة زائدة: هذا أحسن فعلا. وقالت الأم لها تنصحها: تعاملي

مع طليقك باللين والاحترام حتى لا تضيعي رؤية الولدين مثلما ضيعتهما منك. فردت عليها البنت الوقحة: لماذا تقفين في صفه ولا تقفين في صفي. قالت الأم: لأنه على حق وأنت على باطل. قالت البنت الوقحة: على العموم لا تذهبي بهما إلى الفيلا. قالت: قلت لك لن أذهب وسأسلم المفاتيح لخالتك ثم قالت الأم محتدة: أرجوك بعد ذلك اليوم لا تتصلي بي لا في الرياض ولا في القاهرة ولا أريد أن أسمع صوتك.

الكلبة أخذت بالنصيحة، وهي المهادنة بينها وبين زوجها ومعاملته بالحسنى كما أوصتها أمها، واعتذرت عما بدر منها وعما بدر من زوجها لطليقها، وطلبت منه أن يسافر هو والولدان إلى القاهرة، وأن يقضوا فترة الإجازة في هناء، والسنة القادمة سوف يرسلهما إليها. وفي القاهرة طلبته، وطلبت منه إرسال الطفلين على حسابها في أول أغسطس إلى الإمارات، وسوف تتكفل بإرسالهما على حسابها أيضا إلى الرياض في أوائل سبتمبر. وافق طليقها مادام أن التكاليف كلها على حسابها. وقام بتلقي التذكرتين بالفاكس على شركة الطيران السعودية، وسافر الطفلان. ولو كانا قد استمرا في القاهرة لأخذتهما جدتهما معها إلى مرسى مطروح، مثلما انضما إليها في القاهرة زهاء أسبوع، بعد أن قضيا مع أبيهما أسبوعين في شقته الجديدة في الإسكندرية.

ولم كانت قلة الأدب منذ البداية مع الطليق أو معي؟ .. هل لا تستفيد من النصيحة إلا بعد أن خسرتني وخسرت أباها، الذي لم يرض عن سلوكها، وأصبحنا لا نطيق سماع اسمها أو سماع صوتها.

انتشلتها أختها من أفكارها، وسألتها: فيم سرحت؟ ..

قالت بأسى: سرحت في المجرمة وأعمالها .. تلك التي هدمت بيتها وحرمت ولديها من حنانها وأمومتها. وجرت وراء شتام تربية حواري. وخسرت والدها بلا سبب. لا أدري كيف انقلبت هذه الفتاة من طيبة إلى مجرمة؟ ..

قالت عائشة: إذا كانت ابنتك مجرمة قيراطا فماذا تقولين عن ابنة علوية .. التي خطفت رجلا من زوجه وأولاده وتزوجته رغما عن إرادة أمها وأبيها ..

قالت: أتجعلين ابنة علوية في كفة أسفل من كفة المجرمة .. تلك التي تركت ولديها وخسرت أسرتها من أجل رجل لا وزن له؟ ..

قالت عائشة كأنما تصر على رأيها: ما أنيل من سيدتي إلا سيدي.

جاء رجل الشاطئ بعد ساعة وطلب منهم الرحيل عن الشاطئ مبكرا، فعما قريب سوف يحدث كسوف للشمس. بل أشار إلى المياه التي بدأت ترتفع عن مستوى الخليج وسوف تغرق الشماسي. وحان الوقت لتحريكها حتى لا تغرق.

قاد بهاء السيارة عائدا إلى الفندق، ولا يزال الطفلان يتصارعان عمن يجلس في حجر أمه ومن يجلس بجانبها. وتاتا تعنف الطفلة الصغيرة لأنها جلست في حجرها عند الذهاب فيكون على الولد أن يجلس على الحجر في الإياب. وغضبت الطفلة وزامت وكادت تبكي. بينما الولد سعيد في أحضان أمه. وتكاد تنطلق السعادة من وجهه الأبيض الذي أحمر من الشمس والانتشاء. وقد ساح شعره الأصفر على جبينه. وعائشة هانم جالسة كالملكة في السيارة التي تترنح في الطريق من شاطئ روميل الترابي في بدايته المسفلت في نهايته.

رفضت السيدة عائشة أن تعطي عفاف القراونة المستطيلة البلاستيكية لتغسل فيها لأن تاتا دفعت ثمنها من جيبها، لذلك قررت أن ترسل بهاء في الليل لشراء واحدة مثلها. وقررت عائشة ألا تخلد للراحة، وأن تذهب مع بهاء إلى السوق، ورافقه بقية أفراد المجموعة.

وكانت السيدة عائشة قد انتظرت في الباحة المقابلة للفندق حتى تنزل زبونة الفندق الماهرة لتحقنها بالحقنة المضادة للارتشاح. وجلسوا قليلا من الوقت حتى نزلت وتم الحقن ثم استقل بهاء السيارة، وقد أوشكت الساعة على الثامنة والربع، فلم يجد مناصا إلا الدخول من الأرض الخراب المجاورة للفندق، ومرق منها بعد اهتزازات مستمرة في السيارة تكاد تخلع أجزائها وتفصصها. حتى وصل إلى الشارع المسفلت الواقع خلف الفندق، وطفق يدخل في شارع ويخرج إلى آخر حتى بلغ الشارع العام المؤدي إلى شارع إسكندرية. وهناك وقف بجانب رصيف بسيارته دون أن يعترض عليه أحد. ونزلت عفاف

لتشتري حاجياتها. بينما بقت السيدة عائشة بجانب بهاء في السيارة. وجلست في الخلف تاتا وطفلاها. وأخذت عفاف تنتقل من محل إلى آخر. تبدو كالجواد السريع بين المحلات ولا تشكو من شيء . وحينما تعود إلى البيت تبدأ في الشكوى والإعلان عن الألم . واشترت جبنا وزيتونا. وكان معهم حلاوة قادمة في حقائبهم من القاهرة فلم تشترها.واشترت حوض الغسيل المستطيل. وخبزا. وكانت السوق تعج بالمصطافين، وقد انتشر الباعة في كل مكان. يبيعون الفاكهة والخضراوات ومحلات مفتوحة عن آخرها تبيع كل شيء حتى عصير القصب. واشترت مشابك لتعليق الغيارات الداخلية على حبل وجدته في شباك الحجرة مربوطا. شباك زجاجي يفتح بالقوة ويقفل بالقوة.

عاد بهاء بالأختين. أما تاتا فقد ركبت مع ولديها الطفطف. وهو عبارة عن قطار يمشي على عجلات كاوتشية كالسيارة. يطوف بالركاب المصطافين على الشاطئ المسموح فيه بمرور السيارات ويعود بهم إلى نقطة البداية.

كان الكابتن وليد قد استأذنهم أن يضع لهم العشاء في حجرة بهاء، لأن ليس من بين النزلاء من يتعشى غيرهم. ولما سألت عفاف عن السبب. قال إنهم اختاروا الإفطار والغداء وانتم اخترتم الإفطار والعشاء. قال بهاء: أبدا. نحن لم نختر إنما موظف شركة السياحة هو الذي قام بذلك الاختيار.

ووجدوا العشاء باردا. بامية وأرزا. وقطعا من الدجاج يبدو أنها دخلت وخرجت من النار عدة مرات. يبدو أن اللحم غالي الثمن لذلك لا يشترون إلا الدجاج لتقديمه للنزلاء.

ولم تأكل عائشة هانم. واكتفت بان تأكل قطعة من الجبن الذي حملوه معهم من القاهرة. وأكل بهاء وهو يقول: منذ أربعين سنة كنت آكل في الجيش الأكل باردا فحتى يتم توزيعه على الجنود يكون قد اصبح باردا. ويتدخل الشتاء في سلب حرارته. فلا أجد غضاضة في تناوله باردا.

الفصل التاسع

العــودة إلي شـــاطــئ كلــيوبـاتـرة

يطالع بهاء وهو مستعد للسباحة جريد الأهرام ليقــرأ مقــال عــن الاغتصاب بين المحارم. بينما تدخل تاتا وولداها إلى الماء لتعوم فيــه. يتأملها بهاء، جمالها ليس صارخا، ولكنها أنثى. هذه تعد من المحـــارم لا يجوز له أن يقربها. إنها بنت الأخت.

تخرج تاتا من الماء بعد قليل، لتتســلم الجريــدة منــه، تتصفحــها وتناقش معه ما يكتبه الكاتب. تعيب عليه التعرض لهذه الموضوعــات الشائكة. يقول بهاء إن هذه الموضوعات تفتح الأذهــان إلــى الحــذر والدعوة إلى صيانة أعراض المحارم. يخلع بهاء فانلته، تنظر تاتا إلــى ظهره وتقول: يجب أن تتوقى من أشعة الشمس يا عمي. يقول: هـــذا ليس صيفا يا تاتا. هذه نار ملتهبة. تقوم برش مرهم على الظهر، وتبدأ في تدليك ظهره. ثم تعطيه المرهم ليدلك به قدميه ويديه المتســلخة .. ثم ينزلان إلى الماء الهادئ – شاطئ كليوباترة مرة أخرى – والولــد والبنت معهما. وقد دخلا في عوامة بلاستيكية.

يبدأ بهاء في السباحة بالقرب من تاتا. وهي تجدف بيديــها كأنــها تعوم في الماء بملابسها كاملة لتكون بجانب طفليها. لم يدخــل بــهاء

الماء منذ زمن طويل. حتى في السنة قبل الماضية حينما نزل وحـــده إلى القاهرة، قضى أسبوعا في الغردقة. عام في حمام سباحة الفنـــدق. وفي السنة الماضية كان يشاهد البحر من بعيد، ولم يفكـــر أن يرتـــدي لباس البحر وينزل. كان منشغلا بتأثيث الدور العلوي من فيـــلا الفتـــاة المتمردة على أهلها. لقد شعر في السنة قبل الماضية وهـــو يسـبح أن نفسه اصبح ضيقا يبدو أن الدهن في الدم كان مشبعا عاليـــا. والآن لا يسبح إنما يعوم على وجه الماء حتى لا يتعرض لخفقان القلب.

شغلته مقالة الاغتصاب. وتساءل: هل يجـرؤ علـى أن يغتصـب أنثى؟ .. إن زوجه قد تلجئه إلى ذلك لإعراضها عـن الجنـس. إنـها تدعي أنه مريض ولا يتحمل أن يقرب أنثى، ولكنه يشعر مـن حيـن لآخر أنه استرد صحته، ولا يجرؤ على أن يطلبها لأنها تغط في نـوم عميق. كان في الماضي يندفع نحوها متغطيا كـــل المعارضـــات ولا يبالي. أما هذه الأيام فيبالي، يخشى ألا يتمكن من ممارسة الحب، لذلـك يمتنع عن التقرب منها. وهي لا تحاول أن تتقرب منه كأنها قـررت أن تهجره إلى الأبد أو لعلها زهدت فيه واصبح لا يثيرها .. ماذا يفعـــل؟ .. هل يبحث عن أخرى؟ .. ومن ترضى بك في هذه السن يـــا عـــم بهاء؟ .. وماذا لو حدث وتزوجت ثم اتضح أنك غير قادر وغرقت في شبر ماء.

تذكر الدكتور جمعة، وهو يفتخر في العمل وبيـــن الخـبراء مـن الزملاء أنه فحل قوى، وينجز واجباته الزوجية بشكل يدعو للفخر. ثـم يعود ويعترف أن السن المتقدمة عامل من عوامل الضعف، وأنه فـــي

الماضي كان قادرا كالثور، أما الآن فيكفي أن يطلب زوجه مرة في الأسبوع. يضحك الزملاء لأنه يتراجع.

فماذا عن إسماعيل ذلك الذي أصيب خلال مأساة الخريف بداء السكري. عصره الحزن والألم ونكران الجميل من الأولاد وعدم إخلاص الزوجة فكان يقطر سكرا، والمعروف أن هذا الداء يصيب الإنسان بالتراجع فهل تقهقر واصبح لا يقوى على الدنو من أنثى؟ .. كيف استطاع أن يوفق في حياته الزوجية الجديدة؟ .. هذه أسرار في حياته لا يقوى عن الإعلان عنها مثلما هو في حياته أسرار لا يذيعها. إن أحدا. لا يعرف الإحباط الذي يعانيه. ولا يعرف كيف هو صابر في أتون العذاب. وعلى الإنسان في مثل حالته أن لا يتذمر ويرضى بما حكم الزمان.

استغربوا جميعا – في ذلك اليوم – أن عائشة هانم لم تفكر في العودة مبكرا. غير أنها عند الساعة الثالثة نظرت إلى أختها، وقد بدا الإرهاق على سحنتها، ثم قالت عفاف: هيا بنا. يبدو أن أبلة متعبة.

وعند طريق العودة، انحرف بهاء جهة اليمين، كما أشار إليه الجندي من قبل، ثم عاد إلى الطريق المتجه إلى وسط مرسى مطروح. وكانوا قد مروا في الصباح بحانوت يبيع السمك، وقرروا وهم يشترون زجاجات السفن أب وعصير التفاح أن يمروا عليه عند الظهر لشراء سمك وجمبري.

وفعلا اشتروا السمك البوري والبلطي والجمبري وقام بهاء بتوصيلهم إلى الفندق، ثم عاد ليتسلم الأسماك والجمبري.

طفقوا يأكلون في حجرة بهاء وعفاف بنهم. وانفرد بهاء جالسا على أرض الحجرة وقد فرش مفرشا بلاستيكيا خفيفا غطاه بورق جرائد قديمة. وأكل سمكته والجمبري الذي وصل إليه. وقامت عفاف بتفصيص الباقي ووضعه في علبة، ثم أدخلتها إلى الثلاجة فقد تنفع في وقت آخر.

وقبل الساعة الثامنة مساء أوقفت إدارة الفندق السامية الكهرباء ومنعتها عن المكيف، فاضطرت عفاف ومن بعدها بهاء إلى النزول إلى الساحة الواقعة أمام الفندق، لعل نسمة هواء تمر بهما، فتخفف من الحر اللافح.

وأعقبتها عائشة هانم وابنتها وولداها.

قامت تاتا بالاتصال بأختها الدكتورة فايزة في فيلتها في الساحل الشمالي. ونجح الاتصال لأول مرة بعد محاولات فاشلة كثيرة في الأيام الماضية. وسألتها: أين كنتم في الأيام الماضية، اتصلت بكم كثيرا وكان الهاتف يرن دون مجيب؟ ..

أجابت: كانت الحرارة مقطوعة عن الهاتف. ولم تصل إلا اليوم. وكيف حال ماما؟ ..

قالت: الحمد لله .. ولو أنها لا تضع الركبة التي أوصى بها الدكتور.

قالت: قولي لها إنها لن تشفى إلا إذا لبستها.

قالت: ماذا أفعل إن مخها عنيد.

سألت الدكتورة: ومتى تصلون إلينا؟ ..

قالت: فات الآن أربع ليال وبقى لنا ثلاث. سنصل يوم الاثنين القادم.

انتهت المكالمة.

كانت المرأة الوافدة إلى الفندق حديثا قد انتهت من حقن عائشة هانم بحقنة المضاد للارتشاح. وانتظرتها عفاف عند الساحة. وخرج الدكتور بهاء ليتمشى على البحر. ونسمة ضعيفة للغاية تهب من البحر إلى البر. ومضى يتمشى حتى بلغ فندق نجرسكو. ذلك الفندق الذي نزل فيه العام الماضي هو وزوجه، وقد جاءا ليتفقدا قطعة الأرض التي اشتراها في أبي لهو. كان يشكان في أن صاحب الأرض ليس صاحبها، وأنه يبيع له الهواء، لكنه تأكد أن هناك ظلا من الحقيقة في الأمر، ولو أن الشك لا يزال يلعب في صدريهما. هناك لو تقدم به العمر فسوف يبني فيلا من طابق واحد، ويمضي شهور الصيف هناك، ولن يكون في حاجة إلى فيلا الابنة المارقة. فلتذهب إلى الجحيم. وماذا لو رقدت في التراب قبل أن تبنيها. لا أهمية فمن الممكن أن أرقد الآن وأنا أمشي منتصب القامة. وفعلا اصطدم بهاء وهو يسير يفكر بعلمود نور في منحنى عند الشاطئ. وعاد وقد أمسك برأسه التي تؤلمه.

وعاد ذلك المساء ووجد أن العشاء مكرونة ولكن تصاحبها في هـذا اليوم قطعةِ من اللحم. ولم يعترض لأن المكرونـــة كـــانت مطبوخــة بطريقة جديدة. وقال الكابتن وليد: إن تلك المكرونة صناعـــة زوجــة صاحب الفندق.

سأل: وأين الطباخ؟ ..

أجاب بهدوء: طردته.

الفصل العاشر

النساء الكارهات

انتهت تاتا من الفاصل اليومي في تأديب الطفلين. وسمحت لهما بالنوم. البنت في الداخل والولد الجميل يتبعها في الوسط حتى لا يسقط مثلما سقط من قبل وهي عند حرف السري. والحجرة مكتومة لا تدخلها نسمة من الهواء، ولو أن المروحة تقلب في صهد دائم. فكرت تاتا: لا أريد أن أذهب إلى الساحل الشمالي. لو أذهب مع خالتي وزوجها إلى الإسكندرية لكن كيف ذلك وقد حجزا في الفندق حجرتهما وهما في القاهرة؟ .. ثم أين المال يا سيدة تاتا اللازم لتأجير حجرة أخرى لو فرض وكانت هناك حجرة شاغرة. ما عليك. إنك مخلوق مغلوب على أمره. وسوف تمضين إلى أختك صاغرة رغم أنفك. وما عليك إلا أن تتخلفي يومين وبعد ذلك سوف تأخذك أمك إلى شقتها الدائمة في الإسكندرية. حيث ولدت وترعرعت وكبرت وصرت زوجا. ولتتحملي عبوس الدكتور المتكبر زوج أختك. الصامت أبدا كأنه أبو الهول. لا أدري ماذا جذبها فيه. لو وضعوا في كفة ذهبا ووضعوه في الأخرى لما رضيت به زوجا!! .. إن زوجي – ولو أنه أصلع منه – غير أنه جميل. وقد اكتسب جماله التركي ذلك الولد

الصغير. يبدو أن زوج أختها لا يقبل أن يزور أو يزار، لذلك يكشر في وجوه الزائرين. ولكنه مرغم على قبول الاستضافة إزاء شخصية الدكتورة زوجه الطاغية. لكنه يشعرك أنه متضرر من زيارة أقارب زوجه. حتى زوجها لا ينسجم مع ذلك الدكتور المتكبر. وكبره يظهر في صمته المطلق. إنه حتى لا يتمكن من أن يتكلم في موضوع معين. كيف تعيش معه فايزة. يبدو أن عملهما المتباعدان يخففان من حدة المواجهة لذلك يندر الشقاق الظاهر بينهما. ولا أهمية للحب. كل منهما يعيش في عنبر المرضى بعيد عن الآخر. وحينما يجتمعان يلتقيان على مائدة الطعام. يتكلمان كلاما فنيا علميا. وبعد ذلك ينامان ليذهب كل منهما إلى عمله في اليوم التالي من جديد. وعملهما لا صلة له بالآخر. هو مسئول عن قسم الكلى، وهي مسئولة عن قسم الأطفال. أمن الممكن أن تكون حياتهما كئيبة لهذه الدرجة؟ .. إن زوجها بعكس ذلك الرجل. لا يتوقف عن الكلام. يضجون منه في العائلة. ويدعي العلم بكل شيء. وهي لا تكرهه كراهية التحريم لكن تكره تصرفاته المتمثلة في بخله. وهو يدعي أنه ليس بخيلا إنما هو حريص.

سمعت تاتا شخير أمها يصل إليها. إنها تغرق في النوم دون فترة انتظار. وحينما تقوم تدعي أنها لم تنم جيدا. وتعاود تاتا التفكير. لم حاولت أمي أن تزوجني في سن مبكرة؟ .. كانت تخشى علي من العنوسة. أو بالأحرى حتى أنافس بنت خالتي التي تزوجت في الرابعة والعشرين. لقد تزوجت أختي الكبيرة في الثلاثين. والثانية في التاسعة والعشرين. أما أنا فمن يرضى بي في هذه السن لو كنت بقيت دون

زواج حتى الآن؟ .. لقد اكتشفت أن الخطيب الأول مدمن، ويبدو أنه لم يكن يدري أين يصرف ماله، فصرفه على تدمير نفسه، ورغم ثرائه الفاحش نفرت منه، لأنها عرفت مصيرها معه وهو الفقر، حينما يبدد أمواله على المخدرات ولا يبقى في حوزته شيء. والثاني بخله معلن، فهو مفضوح البخل، فاضطرت لفسخ خطوبتها دون مناقشة. أما الثالث فقد وافقت عليه أمي على الفور، رغم أنها اشتمت التقتير في طبعه، غير أنها لم تقتنع بهواجسها. وهاهي تغدق عليها لتعوضها عما فاتها من نعيم، ولعلها تشعر بتأنيب ضمير لأنها تحمست للمقتر ولم تأخذ بالإشاعات. وجعلتني مثلها أكره زوجي أو لا أميل إليه. لا أعرف السبب في أن نساء العائلة كارهات لأزواجهن. خالتي عايدة تكره سوا زوجها، وتقول عنه إنه مجنون عصبي، يقسو على أولاده بلا أسباب مقبولة، ويخترع أسبابا للشجار، لذلك هربوا منه جميعا، وبقيت هي الوحيدة بجانبه تندب حظها. وأمي كانت تكره أبي وتقسو عليه، بل كانت تضربه وهو يفر منها. تزوجها صغيرة قصيرة القامة رفيعة البدن، وإذا به بعد خمس سنوات يكتشف أنه هو القصير، وأنه يعيش مع عملاق ضخم الجثة، ولسانها - كما يقول الدهماء - كالمبرد. فصار يخشاها ويتجنبها، ولو أنه كان من حين لآخر يتناطح معها بالألفاظ. وخالتي عفاف تلمح من حين لآخر أنها لم تعد تطيق زوجها، لأنه سلبي في اتخاذ القرارات، وتضغط عليه حتى يتخذها، ولكنها لا تصرح بالكراهية علنا. أو أنها تريد الانفصال عنه. ولو أن ابنتها فعلت ذلك، وكرهت زوجها السابق، ولم تعد إليه، وتزوجت آخر،

وصرحت أنها كانت تكره الأول لسوء سلوكه وتصرفاته المشينة. فقد نما إلى علمها أنه على علاقة آثمة مع زوج كفيله. ولو أنها فيما بعد اكتشفت أن السائق الهندي لدي الكفيل كان كاذبا وافترى بتلك الأخبار الكاذبة. وكان طليقها قد أقسم أمامها على المصحف أن لا علاقة له بين زوجة كفيله وبينه. ولم تصدق القسم رغم أنه وضع القرآن الكريم على عينيه. لم تكره نساء هذه العائلة أزواجهن؟ .. ربما ورثن ذلك عن الجدة الكبيرة فقد عاشت منفصلة عن زوجها اعتبارا من سن الخمسين حتى الرابعة والسبعين يوم أسلم الجد الكبير الروح لبارئها. هذا غريب فعلا. المهم في الموضوع أن أمي بكت أبي كثيرا. وجدتي رأس الأفعى كانت تكره جدي ولم تر معه في حياتها أياما حلوة وحينما مات بكته وترحمت على أيامه. هل هن مريضات؟ .. ورغم أنهن كارهات لأزواجهن إلا أنهن كن يعشن معهم فيما عدا بنت خالتي التي لم ألتق بها بسبب أنني أسكن في العمارة التي يسكن فيها حماها السابق هو وابنته وزوجها وأولادهما .. كيف تدخل هذه العمارة وقد تلتقي بهم؟ .. إنها كانت تأبى وهي في الرياض أن تلتقي بمطلقها لأن زوجها كان يرفض ذلك. وحكت لي مرة أنها كانت تريد أن تسوي مشاكل عالقة بينها وبين طليقها فحدد لها موعدا في مطعم بفندق خارج الرياض بالقرب من المطار. وهناك وجد معها خطيبها - ولم يكن تزوجها بعد - فترك المكان ولم تحدث التسوية المنتظرة وتحولت بعد ذلك المشاكل إلى قضايا ودعاوى منها ضده.

داهمها النوم فلم تستطع أن تفكر. وغرقت في سبات عميـــق. لـم ينتشلها من الغرق غير ذلك الحر الفظيع. جعلها تعوم في ماء عرقـــها بدلا من بئر نومها. وسمعت شخير أمها يصل إليها عاليا.

لم يختلف الصباح في اليوم السادس عن الصباح في الأيام الســالفة، انفصل التيار الكهربائي عن المكيف كأن صاحب الفندق يقول للدكتـور بهاء: على قد فلوسك. ونزل الدكتور بهاء لا ليجادله، إنمـــا ليشـترى جريدة الصباح، وقد التقي به صدفة فلم يحيه، وتجاهله. وبحـــث عــن الجريدة وراء الفندق لما لم يظهر بائع الصحف. واستغرب أن الكشــك الواقع خلف الفندق يبيع الصحف، ولم يلحظ ذلك طوال الأيام الخمســة الماضية. وعاد ليقرأ في ساحة الفندق الأمامية أخبار الصباح. هنا يقرأ الصحف في يوم صدورها، بعكس الرياض. حيث تصـــل أو تــوزع صحف اليوم السابق، بل في بعض الأحيان صحف اليوم الأسبق.

ووجدهم ينزلون لتناول الإفطار، ولم يختلف الإفطار عـــن الأيــام السابقة. طبق فول وبيض وجبن ومربة وشاي. ويتأخر الخبز ثم يظهر بعد طول إلحاح.

ولا تتكاسل السيدة عائشة في الخروج، بــل تركــب الســيارة ذات الصوت المزعج. وينطلق بهاء بالعائلة إلى شـــاطئ كليوبــاترة مــرة أخرى. ويتوقف عند نادي التجارة لتسأل تاتـــا عـــن شـــاطئ نقابــة التجاريين. وصف لتاتا أحد الرجال الطريق. وأعادت الوصف علـــى الدكتور بهاء. وتمهل وهو يدخل حمامات كليوباترة، وانحـــرف إلـــى

اليمين في طريق غير مسفلت ملئ بالثغرات والحفر والزلط والطوب. مرصع بالمطبات والارتفاعات والانخفضات. وطلبن منه أن يتمهل. قال: إنني متمهل. حتى بلغ مصيف نقابة التجاريين. وهناك أبرزت تاتا بطاقة العضوية المنتسبة إلى نقابة التجاريين. وسألت عن إمكانية الاستفادة من الشاطئ. وقرر المدير إن اليوم هو يوم تسليم وتسلم الأفواج القديمة والجديدة فعليها أن تأتي غدا مقابل خمسة جنيهات للفرد. واضطر الدكتور بهاء أن ينزل إلى شاطئ كليوباترة مرة أخرى .. ليقضوا بقية اليوم.

سبح وحده في البداية، لأن تاتا نسيت عوامتي الطفلين، لذلك نصحتهما أن يسبحا في المياه الضحلة القريبة. لو كان ولدا ابنته لم يسافرا إليها لكانا الآن يسبحان معهما.

طلبت البنت المارقة تاتا هاتفيا، وعرفت منها أنهما يقضيان أسبوعا عند جديهما، فطلبت أن تكلمهما بشرط ألا ترد أمها على الهاتف أو أبوها. إنما ترد عائشة هانم خالتها. وصلت السفالة بها إلى درجة وضع شروط في استعمال الهاتف الخاص بنا؟ .. وأخبرتها أنها اتفقت مع أبيهما على أن يسافرا إليها في الإمارات، وهي تريد أن تبلغهما بذلك شخصيا. قضى الولد والبنت أياما جميلة مع جديهما فعلا، وسرعان ما انتهت، وسافرا إلى أمهما. على العموم الحمد لله أنهما لم يأتيا معنا وإلا كان قد تعذبا معنا في فندق الشقاء الأزرق. ومن قال لك إنه كان سيكون ذلك الفندق؟ .. لربما وجدنا فندقا آخر أروع منه أو ربما أسوأ منه. وهل بعد ذلك الفندق ما هو أسوأ؟ ..

شدوا الرحال متأخرين. وتفاخرت السيدة عائشة أنها انتظرت حتى بعد الساعة الثالثة بعد الظهر. لأول مرة تضرب الرقم القياسي في البقاء على الشاطئ.

في المساء استطاع الدكتور بهاء أن يضبط هوائي التلفزيون الملون الصغير الملحق بالحجرة. واجتمعوا معا بعد إلحاح على مستقبل الفندق أن يدير المكيف ويمده بالكهرباء ليعمل. وطفقوا يتفرجون على برنامج حديث المدينة حيث يعرض لمجرمين قتلا طفلين ولم يرأفا بهما. ويتمنيا الإعدام العاجل لأنهما أفاقا على سقطتها البشعة. وأخذ المذيع يؤنبهما على فعلتهما تأنيبا لا يتوقف. إنه يريد أن يتألما أكثر مما يتألمان.

ثقل النوم عينا الدكتور بهاء وحاول أن يقاومه وهو ممدد على فراشه. وعفاف جالسة على فراشها بجانبها تاتا وولداها. وعائشة هانم جالسة على مقعد وبجانبها عصاها الطبية.

قال الدكتور بهاء فرحا: بعد يوم واحد فقط سوف ينتهي عذابنا مع هذا الفندق اللعين.

قالت عائشة هانم: يبدو أن من أدوات عذابه. تقديم المكرونة في العشاء كأنه متعاطف معها.

قالت عفاف: والدجاج .. وأنت لا تحبين الدجاج.

قالت تاتا: لقد بدأت أكرهه. كما كرهه الولد والبنت.

قال الدكتور بهاء: لعله .. لأنه مدير سجن سابق .. يعرف كيـــف يعذب المساجين بتكرار الوجبة الواحدة. فأراد أن يفرض ذلك الأسلوب على النزلاء ليشاهد عذابهم وينشرح.

ولما انصرفوا إلى حجرتهم. استغرق الدكتور بهاء في النوم. كـــان في الماضي ينتظر حتى تنتهي عفاف من قراءة المعوزتين والصمديـــة وبعض الآيات الكريمات المنجيات من المهالك ثم يهاجمـــها ولا يـــهدأ حتى ينالها. ولكن الآن بعد أن أصابه العجز نتيجة ارتفاع ضغط الـــدم وتناول حبوب تخفيض الضغط اصبح يخاف من هذا الهجوم لأنه لـــن يسفر عن شيء. سوف ينتهي بالفشل المقيـــت ويعـــود إلـــى ســـريره حسيرا. يتهمها بأنها كانت السبب في ذلك العجز بسبب زيـــادة الملـــح والدهن في الطعام وبسبب نفورها الدائم من الجنس. ولكنها تتهمه بأنـــه مريض وعليه أن يعالج نفسه أولا ثم يتقرب إليها. حـــاول أن يطلعـــها على كتاب عن الشيخوخة، يحرض المرأة علـــى أن تغـــرق زوجـــها بالحنان والحب والود في لحظات العجز حتى تنتشله من العجز اللاحق به. غير أن عفاف رفضت الاطلاع على الكتاب. وقالت: لـــن أكـــون عاهرة. تساءل مستغربا: كيف تكونين عاهرة وأنت تداعبين زوجـــك حلالك؟ .. أعرضت عنه وطلبت منه أن يكف عن محاوراته معـــها. وقد أدرك أنها السن هي السبب في هذا البرود. إن النساء حينما يكبرن تعافي أنفسهن الجنس والرجال. يصبحن بلا مشاعر حنونة. وهذا هـــو خطؤه منذ البداية، فلو تزوج من امرأة تصغره لما أصابه ذلك العجـــز. إن العجز يا دكتور من أدوية الضغط التي تتناولها؟ .. وإذا توقفت عن

تناولها فسوف يرتفع الضغط وسيقضي عليك. وإذا استمررت في تناولها فالعجز يلاحقك في كل لحظة. إن اللحظات التي تشعر فيها أنك قادر، سرعان ما تتكشف لك أنها أوهام. وأحيانا تكون هي تغط في نوم عميق، فتذهب القدرة أدراج الرياح. ولكن السن لا شك عامل من العوامل. المهم أنك لا تستطيع أن تطلق لأنك جبان. ولا تستطيع أن تتزوج هربا من الدوخة بين الزوجتين. ولا يمكن أن تكون لك صديقة لأن النساء ترفض ذلك. ولا عشيقة لأنك تخشى الله. إنك تخطيت حاجز الستين واصبح عليك أن تنتظر نحبك.

الفصل الحادى عشر

عنـــد شـــاطـــئ التجـــاريـــين

عند شاطئ التجاريين، جلسوا في اليوم الأخير من الرحلـــة، فـــي مكان متطرف بعيدا عن خيمة كبيرة، يجلس تحتها رواد الشاطئ مـــن التجاريين وعائلاتهم.

حاول الدكتور بهاء أن يسبح قليلا، فوجد أن المياه ضحلة، ومليئـــة بالأحجار والصخور الناتئة المدببة الجارحة، فأعرض عن الســـباحة. جلس مع عائشة هانم وزوجه وتاتا، بينما ذهب الطفلان يلعبـــان فـــي حديقة الشاطئ القريبة ويتأرجحان هناك. وتأتي البنت الصغـــيرة كـــل دقيقة تشكو أخاها لأنه ضربها دون سبب، أو شدها مـــن شـــعرها أو قرصها مثلما تقرصه أمه حينما تغضب منه. وتعنفه الأم بقوة بل فـــي بعض الأحيان تصفعه فيبكي ويذهب إلى الأرجوحة محتجا.

عائشة هانم تجلس تتأمل البحر. تقرأ في الجريدة قليلا ثم تزهق فلا تواصل. وتتأمل الماضي. ليس الآن لديها غير السباحة في الذكريـــات. في الزمن القديم كانت مفتونة بجمالها شاهق البياض. ترتـــدي لبـــاس البحر،على جسد من المرمر، ويبدو لحمها الأبيض كتلة متجمعة مـــن الضوء له عينان زرقاوان وشعر أصفر حريري. تتمنى هـــذه الأيـــام

بأيام الجاهلية. رغم أنها لم تكن تفعل شيئا فيه أثـــم كبـــير ســـوى أن ترتدي لباس البحر فيظهر مفاتنها لكل عين. وتسبح به ساعة وتعـــود ترتدي ثيابها حتى قررت في سن متـــأخرة، وبعـــد أن تراكـــم اللحـــم البشري على عظامها أن تتحجب. زوجها أبوها وهي في سن مبكـــرة، دخلت دنيا رجل يكبرها بأعوام. عاشت معه على الحلوة والمرة. كـــان في بداية شبابه طموحا، يرتدي أفخر الثياب، ويسكن في شقتين أحدهما في المحلة الكبرى بجانب المصنع الذي يعمـــل بـــه، والأخـــرى فـــي الإسكندرية. يتخذها مقرا صيفيا له أو يقضي فيـــها أيـــام الإجـــازات العادية أو أيام الخميس والجمعة. واستقر بعد الإحالة إلى المعاش فـــي الإسكندرية. رافضا أن يعود إلى القاهرة مسقط رأسه. واستقر في هـــذه الشقة العالية وتحول المسرف الشاب إلى بخيل عجوز. وباع الســـيارة الشفروليه القديمة وطفق يستعمل الترام في الانتقال مـــن البيـــت إلـــى المصرف أو عند قضاء أمور أخرى. وكان الوحيد الذي يملك ســـيارة في عائلتها. واصبح الوحيد الذي لا يملك واحدة. كرهته لتقتيره الـــذي جاء على كبر. وذلك مما دعاها إلى اتباع طرق استبدادية في معاملتـــه وابتزاز الأموال منه بالإكراه. وركزت همها كله على البنات الثـــلاث وكيف تفخر بهن وسط العائلة سواء عائلة أمـــهن أو عائلـــة أبيـــهن. وأدركت حينما مات أنها لم تكن تكرهه إنما كانت تكره تصرفاته. وقـــد بكته كثيرا وحدها حينما وفى أجله. ولو أنـــها كـــانت جـــامدة أمـــام المعزيين والمعزيات. واستقبلت الحياة بعد أيام ضاحكة. وتحررت مـــن ربقة رجل عجوز مريض ضايقها مرضه في أواخر أيامه. وأصبحـــت

الآن حرة تتمتع بماله. ذلك الذي لم تشاركها فيه بنت من بناتـــها. وإلا كانت المتعة محدودة يضيق بها الصدر. وانقلب وضعها مـــن كارهـــة لزوجها قبل وفاته إلى معترفة بأفضاله مترحمة عليه بعد الوفاة. ولـــم تختلف عن أمها تلك التي كانت تتمنى موت أبيها - زوجـــها - فلمـــا قضى لم تتوقف يوما عن الترحم عليه، ولو أنها كانت تقول: ربنـــا لا يعيد أيامه.

التفتت عائشة هانم إلى أختها وسألت: ألن نذهب بعد؟ ..

نظرتها ابنتها شزرا، وهي تقول: إن هذا آخر يوم لنا في مرســـى مطروح، فلم لا تتركي الطفلين يتمتعان ويلعبان؟ ..

قالت كأنما تبرر طلب انصرافها مبكرا: ولكنهما لم ينزلا البحر لقـد نسيت العوامات.

قالت: الآن يمر بائع واشترى لهما عوامتين جديدتين.

عادا بعد ساعة، وكانت الساعة الرابعة عندما بلغ الفندق. وتكـورت مأساة كل يوم وهي أن المكيف متوقف مرهون تشغيله بمشيئة صـاحب الفندق. وليس في يد أحد غيره أن يوصل الكهرباء إليه. وبعد لأي بـدأ الريح البارد ينطلق منه.

وفي المساء كان العشاء الأخير. ووقف كابتن وليـد يعتـذر عمـا يكون قد بدر منه، لكن الدكتور بهاء قال له: إن ليس لك في الأمـــور يد. إن صاحب الفندق هو السبب في هذا الشقاء الذي نعيـــش فيـــه ..

وكأن الكابتن وليد نقل الشعور الساخط إلى صاحب الفندق، فغضب، فلم يقم بتوصيل الكهرباء إلى حجرة الدكتور بهاء، فلم يعمل المكيف. طلب الاستقبال عدة مرات ولكن لا حياة لمن تنادي. وأخيرا قررت تاتا أن تلجأ إلى الحيلة بالتهديد، فقالت لرجل الاستقبال: إذا لم يوصل التيار الكهربائي في ظرف ثوان بالمكيف فسوف اتصل بشرطة النجدة.

ودبت الحياة في المكيف على الفور.

الفصل الثانى عشر

الطــريــق إلي الإســكــندرية

بدأ الخطر في الصباح يترصد، وهم يتجهون إلى الإسكندرية. عـاد الخطر من جديد يقهقه. وتساءلوا: كيف سنمضي بهذه السيارة العرجاء إلى الإسكندرية؟ .. توقفت فجأة عند مفارق الطرق. غير أنها عـادت تعمل كأن البطارية سقطت ثم ارتدت من جديد فعادت لها الحياة: فقتسد. كان الطريق إلى الإسكندرية مرتفعا للعائد منحدرا للآتي. فأحدث ذلـك الخلل في السيارة.

سألت عفاف: ألن تأخذها إلى ميكانيكي؟ ..

قال بهاء متكاسلا: مادامت قد عملت وتسير بهمة فـأرى أنـها لا تحتاج.

الطريق ممل. ولكن الحمد لله أننا تركنا فندق الشقاء الأزرق. فنـدق التعاسة الأزلية. بث الاكتئاب في نفوسنا. لعـل الفنـدق الجديـد فـي الإسكندرية يكون مبعثا للسعادة. ويعود الحبور إلى النفس.

لم تنبش عائشة هانم الماضي إنما ألمحت إليه وهـي تسـأل: ألـن تذهبوا إلى قرية اللوتس؟

سألت عفاف: ولم نذهب؟

قالت: أبدا .. لا أقصد شيئا. هناك يمكن أن نشترى زادا للطريق.

قالت عفاف: الطريق ملئ بالمحلات.

قال بهاء: بعد قليل نجد مدينة الضبعة يمكن أن نشتري منها ما نشاء.

لم تنبش هذه السيدة الماضي؟ .. أتحاول أن تتأكد أن ليس معنا مفتاح فيلا البنت المارقة؟ .. لقد أعطت عفاف كل المفاتيح إلى أختها عايدة. وسيطة البنت في القاهرة .. أمامها، فكيف تظن أننا سندخل القرية. وحتى إن دخلنا فلن نذهب إلى الفيلا. لعلها تظن أننا سنقيم في الفيلا بدلا من الإقامة في فندق في الإسكندرية.

لم يكن عليهم الذهاب مباشرة إلى الإسكندرية، إنما ترك السيدة عائشة في قرية ابنتها فايزة هي وابنتها وطفليها. ثم الاتجاه بعد ذلك إلى الإسكندرية.

وأبطأ الدكتور بهاء السرعة، حتى لا تنحرف منه السيارة، وتدخل في الرمال ولا يستطيع إنقاذها.

ووصلوا أخيرا إلى قرية الدكتورة فايزة. وهناك استقبلهم الدكتور زوجها، وصافحهم، ثم اختفى. سأل عنه الدكتور بهاء: أين ذهب الدكتور نبيل، غير أنه لم يطلق سؤاله وبقى في جوفه ساكنا. ورقد الدكتور بهاء على كنبة طويلة. وما كاد النوم يتطرق إلى عينيه

وتزحف مياهه العالية إليه، وأغمض عينيه، ظهر الدكتور نبيل حاملا سمكا مشويا وجمبري، ومعه قريب له وزوجه. بقى صامتا كعادته لا يتكلم إلا كلاما مختصرا لا يدل على أنه تكلم. أما قريبه فيختلف عنه، فهو متكلم بارع. طفق يحكي عن يده التي تم وضع الجبس فيها فقد انزلق في حمام بيته وهو يتوضأ ونقل إلى المستشفى وأشرف ابنه الطبيب على وضع اليد في الجبس بعد إجراء أشعة أثبتت الكسر.

والدكتورة فايزة تحولت إلى سيدة بيت، فأخذت تساعد خادمتها صديقة في إعداد المائدة. وعرف الدكتور بهاء من زوجته مأساة هذه الخادم. تزوجت سائقا وعاشت معه بالقرب من المصنع الذي يعمل به، وتسلما شقة بتقسيط مريح، غير أن الزوج بعد أن انجب منها ولدين وبنتا، قضى نحبه دون حادثة، إنما بسبب توقف القلب. وترجع الخادم السبب إلى تدخينه بصفة لا تنقطع، وسعاله المستمر الذي لا يتوقف، حتى توقف القلب فسكت السعال. وهي الآن تجري على أولادها الثلاثة سعيا وراء الرزق. تخدم في آخر الدنيا .. في الساحل الشمالي من أجل هؤلاء الأولاد. وتضطر أن تسافر من بيتها بالعامرية إلى الإسكندرية، ومن الموقف الجديد تسافر من جديد إلى الساحل الشمالي حيث فيلا الدكتورة. تذهب وتجيء يوما بعد يوم لخدمة الطبيبة. حتى تسافر. ثم تتحول إلى أمها في زيزينيا.

وقال بهاء: الرزق يحب الخفة!! ..

ولما انتهى التهام الأسماك والجمبري. قرر بهاء أن يتوجـــه إلـــى الإسكندرية. وطلبت عفاف من صديقة أن تصحبهما حتى يصلاها إلـــى الموقف عند أول الإسكندرية لتستقل منه سيارة بالفرد إلى العامريـــة. وفي الطريق كاد مقبض القيادة أن يفلت من الدكتور بهاء، وهو يســابق شاحنة كبيرة أو يحاول الإفلات منها، بل كاد يدخل تحــت عجلاتــها، ودق قلب الدكتور بهاء إزاء ذلك الخطر الداهم، غير أنه لم يعلن عـــن الخطر الذي تهددهم. وضبط مقبض القيادة بشدة حتى تماسك في يديــه. وأدركتا المرأتان الخطر، والدكتور بهاء يتمكن من أن يســيطر علــى القيادة ويتنفس الصعداء.

واستمع الدكتور بهاء إلى الخادم صديقة، وهي تروي قصتـــها مـــع الشقاء. حيث تزوجت سائقا في شركة العامرية، ونفيت عـــن موطنـــها الإسكندرية، وقبلت برضا. وأنجبت منه ولدين وبنتا. واستطاع الســـائق أن يشتري شقة من الشركة ودفع أقساطها. ولكنه لم يستمر في الحيـــاة. كان صدره الضعيف سبب هلاكه، فقد كان يدخن بشراهة. ويوم مـــات. توفى في السيارة وابنه الكبير يجلس بجانبه. وغاب الولد عـــن الوجـــود بسبب صدمة موت والده، فقد وجده لا يتحرك وهو يهزه فـــلا ينطـــق. وحينما استرد وعيه أصر أن يمشي في جنازته، بل أصر أن ينزل مـــع الجثة إلى القبر ليحل وثاقها. ولما عاد إلى البيت. عـــاد كـــأن شـــيطانا تلبسه. عاد ينتفض كأنه أصيب بمس. وتاهت صديقة بين الأطباء لعـــلاج الولد الممسوس. واضطرت أن تعمل بعد أن قضت فترة طويلـــة ســـيدة بيت. وهي تفكر الآن أن تنتقل إلى منزل أبيها لتعيش في كنفه بعـــد أن

أصبحت أرملة. وهناك حجرة في بيته بلا شبابيك أو أبــواب تنــوي أن تشتري لها شباكا وبابا لتعيش فيها ببيت أبيها. وتكون بجوار أمها هــي وأولادها الثلاثة ترعاهم. وكانت ابنتها تعيش مع جديها غير أنــها لـم تطق بعادها فاستردتها منهما. وثقل عبء الإعالة لديها ورزح على قلبها لذلك تخرج في الصباح لتعمل في بيوت المعارف وتعـود إليـهم آخـر النهار. وقلبها يأكلها عليهم. فهم لا يزالون صغارا. ولا تريد أن تتركهم، لكن حينما تذهب إلى بيت والديها سوف تتركهم وهي مطمئنة.

قارن الدكتور بهاء هذه البنت البارة بأهلها بالبنت التي تبرأت مــن أهلها. اخترعت في البداية قصة تتعلق بعملها. وكانت تعمل ولا تقبض بدل سكن، وقرر العمل أن يصرف لها ذلك البدل، بشرط أن تســتأجر شقة، وتبرز عقد الإيجار باسمها حتى تمنح بدل السكن. ولمــا طلبـت منها أمها أن تستأجر شقة أبيها – الدكتور بهاء – وتقدم للعمل العقــد على أنها مستأجرة الشقة. رفضت لأنها كانت تبيت النية على أن تفــر من البيت. هي المطلقة ذات الولدين. ولمــا غضــب الدكتــور بــهاء وتساءل: كيف تجرؤ على ذلك؟ .. وتســاءل الدكتـور بــهاء: هـل أضربها؟ .. وكيف تضربها ونحنّ في عصر كف الآبــاء فيــه عــن ضرب أولادهم؟ .. وكيف تضربها وقد تعدت الثلاثين من العمـــر؟ .. فلتذهب إلى الجحيم لو أرادت، ولتذق طعم الوحدة. بيــد أنــها كــانت عاشقة لذلك الرجل السافل، فأرادت أن تؤسس له شقة وتقوم بتأثيثــها، لتكون عش الزوجية الذي يجمعهما. وهو موظف متعاقد مـــع شــركة للنقل والسياحة توفر له الشركة حجرة أو نصف حجرة لأنــه يشــارك

آخر فيها ولا تمنحه بدل سكن. وإذا ما تزوج فلا يجوز له أن يستقدم زوجه إلا على حسابه ولن تمنحه الشركة بدلا. وهكذا خرجت الخائبة لتوفر سكنا لحبيبها المستغل. هل تظن أن طليقها سوف يتركها تهنأ معه؟ .. إنها بمجرد أن تكتب عقد القران فسوف يسترد ولديه منها ولو بالقوة. وهذا ما حدث، إذ بمجرد أن فارقت شقة والديها، خسرتهما. وخسرت ولديها بعد شهور كانت مترددة فيها في الزواج، ثم فقدت الولدين بعد إعلان زواجها من ذلك القرد الراقص الذي تزوجته.

أصرت صديقة الشقية على أن تشقى، فلم تشر إلى الدكتور بهاء إلى موقف السيارات بالفرد لتعود منه إلى العامرية. وأصرت على أن توضح الطريق للدكتور بهاء. وفعلا كاد أن يدخل طريق الإسكندرية فمرق مسرعا وسار في طريق القاهرة الإسكندرية الزراعي، فصوبت له المسار. فما كان منه إلا أن حاول الدخول في الطريق العكسي ليعود إلى الإسكندرية، غير أنه تعثر في الدخول ففاته مدخل ثم آخر، وكان متطرفا نحو اليمين، فطفق يدنو من اليسار، حتى تمكن أن يدخل من المدخل الثالث ليعود إلى الإسكندرية. وقد كفت السيارات عن التدفق وقت الرجوع، تلك التي كانت تمنعه من الاقتراب من جهة الشمال.

وعادت صديقة تحكي قصة ابنها المريض، المصاب باضطراب عصبي، ودارت به على أطباء الأعصاب من الإسكندرية إلى القاهرة. وقال آخر الأطباء إنها حالة سوف تزول عند البلوغ. وتأمل الدكتور بهاء الوضع وأدرك أن ليس الشقاء يسكن في فندق البحر الأزرق، إنما الدنيا كلها فندق الشقاء الأزرق.

الفصل الثالث عشر

السعادة الناقصة

لم يعرف كيف غمره الابتهاج، حينما دخل الإسكندرية، وحاول أن يقف بجانب الفندق الجديد. ولم يجد مكانا، فتلاشى الابتهاج فورا. ونزلت عفاف وصديقة ودخلا الفندق. واستدار هو ليبحث عن مكان خلف الفندق. ودخل في شارع طويل مليء بالحوانيت. ثم وجد طريقا ثعبانيا آخر يتجه إلى الفندق من الخلف. ودخل أول شارع وجده بعد أن قطع مشوارا طويلا. وإذ به يجد نفسه في الشارع القائم بجانب الفندق. ركن السيارة في أوله واستتر ببيت، ولم يستطع أن يتوغل فيه لوجود سيارة تحول دون ذلك التوغل. ثم ذهب إلى الفندق مشيا على الأقدام. وعاد إليه الابتهاج لما التقى بصاحب الفندق مبتسما ابتسامة عريضة مستقبلا إياه بالترحاب. يفيض البشر من وجهه. مختلف اختلافا كاملا عن صاحب الفندق السابق فندق الشقاء الأزرق. كان صاحب الشقاء ممصوص الوجه رفيع الجرم متوسط القامة. وصاحب السعادة بدين ممتلئ طويل القامة كأنه جبل. وجهه مشرق بعكس الآخر وجهه عابس. يا سبحان الله! ..

رحب به الرجل ترحيبا كثيرا. وطلب منه أن يعود بالسيارة ويضعها في الشارع الجانبي المقفل لأنه شارع خاص بالفندق حتى تكون تحت العين والملاحظة. وعاد من جديد الدكتور بهاء إلى السيارة تصحبه صديقة التي اطمأنت على سلامة وصولهما، وذلك لتأخذ ما تركته في السيارة. وهبها عشرة جنيهات جزاء ما عطلت نفسها ودخلت بصحبتهما الإسكندرية لترشدهما إلى مكان الفندق. ولو أن الدكتور بهاء استقل الجنيهات العشرة، لكن النقود كلها في جيب عفاف خشية أن تسقط حافظة النقود من بنطلونه الجينز. ورآها تمشي. امرأة تفيض بالأنوثة في مقتبل العمر، وجهها سمح، ليس لديها الرجل. وهو امرؤ ذو رجولة غاربة، قتلتها امرأة بلا أنوثة. المهم أنهما لن يلتقيا بعد ذلك اليوم والوقت الآن وقت الفراق.

صعد الدكتور بهاء تصحبه عفاف إلى الحجرة في الدور السادس من الفندق. ومعهما حامل الحقائب. فتى مرح لطيف قصير القامة لكنه نشط. هو الذي أرشده إلى المكان حيث تقبع السيارة. وهو الذي حمل عنه الحقائب. وهو الذي فتح لهما الحجرة وأعطاهما مفتاحها فنفحه بجنيهات قليلة.

فوجئ أن الحجرة لا يدخلها الهواء إلا متعسرا لأنها تطل على الشارع الجانبي حيث تنام السيارة. ويصلها هواء البحر منكسرا. ذلك البحر الذي يراه بزاوية منكسرة. قالت عفاف: طلبت من صاحب الفندق أن ينقلنا إلى حجرة بمكيف، فقال إن كل الحجرات مشغولة.

قلت له: ألا توجد مروحة. قال: سوف يرسل لنا واحدة. قال الدكتــور بهاء: رغم أن الجو في الخارج منعشا إلا أنه دخل الحجرة خانقا. عدنا من جديد إلى الشقاء. كان هناك شقاء متقطع. أما هنا فسيكون الشــقاء متواصلا من الحر إلا إذا غادرنا الحجرة طوال اليوم. وهمس لنفســه: ألم تقل أن الدنيا هي فندق الشقاء الأزرق، فلم تتذمر، ما عليــك إلا أن تتحمل الدنيا بصبر حتى تمضي أنت أو تمضي هي. وكيــف تمضــي هي. تقوم الساعة مثلا. هل ستقوم في عصرك؟ ..

اتصلت بعد نوم طويل بأختها عائشة. في فيــلا ابنتــها الدكتــورة فايزة. ردت عليها وأخبرتها عائشة أن تاتا لا تريد أن تبقى في الفيــلا. تريد منها أن تعود. وبعد يومين سوف يسافر الدكتوران إلى القــاهرة وولداهما لحضور حفلة زفاف قريب للدكتور. وستضطر أن تنتقل هــي وابنتها وولداها إلى الإسكندرية في مقرها الدائم. وطلبت منها أن يــأتي الدكتور بهاء بالسيارة لتوصيلهم إلى البيت. اســتغربت عفــاف كــلام أختها وظهرت صيغة الاستبداد واضحة في الطلب، فلــم لا يــأخذهم الدكتور زوج ابنتها ويوصلهم إلى الإسكندرية. أجابت السيدة عائشــة بأن الدكتور نبيل يرفض أن يدخل الإسكندرية بسيارته. أجابت عفــاف على الطلب بأن بهاء قد اتخذ ركنا للسيارة في الشارع الجانبي للفنــدق ولن تخرج إلا عندما تأتي بنت أخيها سونيا وزوجها عــادل وابنتــهما ليأخذوهما إلى العجمي .. في شقتهما المستأجرة في معســكر القــوات المسلحة. وسيقضيان يوما واحدا معهم. ثم يعودون جميعا بالسيارة إلــى القاهرة في اليوم التالي.

وخرجا وجلسا في كازينو قريب من الفندق وشربا ميـــاه غازيـــة، وبعد ذلك قررا أن يعودا ولاحظا أن سونيا اتصلت بهما. كانت تتـــأكد من وصولهما إلى الفندق. وسوف تتصل بهما غدا لأن شـــقتهما فـــي العجمي ليس بها هاتف .. فأخذا يشاهدان تمثيليات كانا قد شاهدا أجزاء منها لأنها مسلسلة في القنوات الفضائية، واضطرا لقطعـــها لدواعـــي السفر. ولما كانت هناك قنوات فضائية في تلفزيون الفنـــدق رأيـــا أن يعاودا تتبعها.

في صباح اليوم التالي اندهشا حينما وجدا جريدة الصباح رشـــقت من تحت باب الحجرة. وبعد ساعة وجدا الباب يطرق، وحامل الحقائب يسأل عن ميعاد إفطارهما، وطلبا الإفطار فجاءهما به الفتى متنوعـــا. هذه الخدمة الرفيعة لم يجدا مثيلا لها في الفندق المأسوف على أيامـــهما فيه. لكن هذه الخدمة لم تمسح ما قاسته بالأمس مـــن الحـــر، فكـــأن السعادة وصلت إليهما ناقصة .. وما السعادة إلا لحظات ثم تذوب فـــي بوتقة الشقاء! .. بالأمس رفضت عفاف أن تفتح الشباك حتى لا تتعرى ليلا رغما عنها فيراها أحد القاطنين في البيت المجاور للفندق، والـــذي تطل شبابيكه على نوافذ الفندق وشرفاته. لما اخبرها بهاء أن الشـــبابيك مقفلة ولا يظهر من ورائها نور. أصرت على الرفض واستمرت فـــي رفضها. ولم تنفع المروحة الجديدة التي أرسلها لهما صـــاحب الفنـــدق الكريم في حال طلبها. كان الحر جاثما في الحجـــرة لا يفارقـــها فلـــم تستطع المروحة أن تحركه.

قررا في اليوم التالي أن يذهبا إلى شاطئ نقابة المهندسين للاستفادة من البطاقة التي استخرجها لهما ابنهما المهندس، فهو عضو في النقابة، رغم أنه حاصل على بكالوريوس الهندسة من أمريكا، ولكنه مصري ويحق له أن يكون عضوا في النقابة. وفي نفس الوقت لوالديه أن يستمتعا بمميزات النقابة ومنها هذا الشاطئ. ودارت بهما سيارة الأجرة من داخل الإسكندرية، ثم عادت من طريق سيدي جابر إلى شاطئ سابا باشا. رفضت عفاف أن تركب سيارة أجرة بالنفر، تلك التي يسميها الإسكندريون المشروع. وفضلت سيارة أجرة، وتقاضى سائق السيارة أربعة جنيهات. ولو كانا قد استعملا سيارتهما لما تكلفا ذلك المبلغ لكن خشية أن يضيع مكانها الحالي استعملا سيارة الأجرة.

ولم يجدا مائدة في الصفوف الأولى، فاضطرا أن يجلسا إلى مائدة في الصف الثالث، وهب الهواء عليلا، زاده الظل قدرة على بعث الانتعاش، وكان الظل يسترهما عن ضوء الشمس الحارق. لا ينفع الهواء العليل إلا في الظل. لا فائدة منه تحت الشمس. إن هذه الجلسة المتميزة جاءت نتيجة كفاح طويل مع الفتي الراغب في دراسة الهندسة ولاشيء غير الهندسة. ولولا أن أباه سافر إلى السعودية لما تمكن من أن يحقق حلمه. المال يصنع المعجزات، فقد ألتحق هناك في أمريكا بمعهد التكنولوجيا بنيويورك، وتخرج منه مهندسا بعد جهد كبير عبر السنين.

وقرأ الجريدة، والوقت يمر ببطء.

ثم تغديا في مطعم نادي المهندسين. واختلف الوضع فيه عن الخارج. كان المطعم مكيف الهواء، فاستمتعا نصف ساعة بالجو الناعم البارد كأن هذه الإجازة قضاياها في صراع بين الحر والبرد وبين الشقاء والسعادة الناقصة.

شعرا وهما يعودان إلى الفندق بالملل، ربما لأنهما خسرا روح الجماعة التي كانت معهما في مرسى مطروح، أو لعل الحر اللافح بعث الملل خانقاً. وصنع لديهما الزهق الذي لا ينتهي. حتى أن الدكتور بهاء عشم نفسه بزوال الملل لأنهما اتفقا على الخروج للتمشي بجانب الشاطئ. رفضت عفاف أن تمشي كثيراً وطلبت الجلوس في كازينو على قارعة الطريق. سألها أن يذهبا إلى سينما. قالت له سينما ايه .. بلا ملل. كان يقتل الوقت في الإجازة قبل الماضية حينما ذهب وحده إلى الإسكندرية بدخول السينما أو بالقراءة المتواصلة. وقد اكتفى بالقراءة وهو في الغردقة. ولكن لم تكن سعادته كاملة، كانت الوحدة تبعث على الملل. والآن تظهر من جديد السعادة الناقصة. هدأ الفندق كثيراً من السخط الذي لازمهما في مرسى مطروح، لكن حل بدلاً منه فراغ أدى إلى الملل فهما لا ينزلان البحر ولا يجلسان إلى الشاطئ ويقضيان الوقت أغلبه في حجرة الفندق.

في المساء فكرت عفاف أن تخرج لشراء حقيبة جلدية من وسط المدينة. كانت تتفرج ولا تشتري. وكان يضايق بهاء أن يتفرج الناس على المعروضات في المحلات دون شراء شيء. لم تعجبها حقيبة من الحقائب التي عُرضت عليها. وكاد يختنق بهاء من الزحام والناس

تسير متلاصقة. والسيارات تمشي أو تجري الهوينى. وأخيراً اهتـــدت إلى حقيبة أعجبتها، ساوت فيها البائعة علــى السـعر ســاعة، حتــى ارتضت بالسعر الذي فرضته عفاف.

ومرت الأيام الثلاثة ببطء، حتى جاء اليوم الأخير. وفي الصبـــاح أفطرا، ونزلا لينتظرا مجيء عادل وسونيا، ليذهبا إلى العجمي حيــث مصيف القوات المسلحة. وجاءا بالفعل ومعهما ابنتهما مرتدية ملابــس صيفية خالعة الحجاب الذي كانت تضعه في القاهرة مما أثار ســخرية الدكتور بهاء ذي الطبع الساخر. ويبدو أن دواعي التحرر في المصيف دعتها إلى الاستغناء عن الحجاب.

بعد الملل ثلاثة أيام مضى الوقت بسرعة، ويبدو أنه يمضي أسـرع مع الجماعة بعكس ماذا كان الإنسان وحيدا أو بين اثنين مضى علــى زواجهما أقل من أربعين سنة. ضاع الوقت في انتظار شي السمك فـي محل لبيع السمك في أول العجمي. مكتظ بالناس والزحام شديد حــول المحل. ولم يكن الحر خفيفا إنما ثقيل ولم تنفع الميـــاه الغازيـــة التـــي اشتراها الدكتور بهاء للجميع في تخفيف حدته. وأكلوا في شقة عــادل مفتوحة الأبواب حتى يتدفق الهواء فيها من كل جانب ويقضـــي علــى الحر لكن الحر صفة لازمة حتى في المصايف. ثم ناموا قليلا وقـرروا النزول إلى البحر في ماعدا عفاف فقد بقيت وحدها تحـــت الشمســية تتأمل المصطافين وتحركاتهم رغم أن الشمس على وشــك الغـروب وليست حادة. الوقار يلازمها أينما ذهبت ومنذ الطفولة لـــم يفارقــها. تميل إلى الجد أكثر من الهزل ولو أنها معروفة بين زميلاتها في العمل

أنها ضحوكة غير أن ضحكها متزن. بعكس الدكتور بهاء الذي يميل إلى الهزل أكثر من الجد ولا يحزن حتى في أوقات الحزن.

قاد عادل السيارة من الإسكندرية إلى العجمي، وقادها في اليوم التالي من العجمي إلى القاهرة. ونبهه الدكتور بهاء إلى الخطر الكامن فيها، وأن السرعة العالية قد تؤدي إلى خلل في مقبض القيادة. يبدو لينا في السرعة العالية حتى أن السيارة تتأرجح. وأدرك عادل ذلك الخطر بالفعل فسار بالسيارة ببطء أو بسرعة معتدلة.

وصلوا إلى القاهرة عند الغروب. وسار عادل على الجسر الجديدة بين الجيزة ومدينة نصر فصار مرتفعا أكثر من اللازم وأثار الفزع في قلب عفاف لارتفاعه الشاهق. وحينما دخلوا مدينة نصر كان الظلام قد بدأ يغزو المدينة. وأوصلت السيارة عائلة عادل إلى دارهم. وقاد الدكتور بهاء السيارة وإذا بها تزمجر ثم تتوقف على مسافة من دار عادل . كان الدكتور بهاء يطلب من عادل أن يملأ خزانة البنزين غير أنه كان يقول إنه كاف. ويبدو أنه كان قد احترق بأكمله ولم يعد هناك بنزين في الخزانة فتوقفت السيارة. توقفت السيارة عن بعد عن شقة عادل. واضطر بهاء إلى المشي حتى يبلغه أن السيارة قد توقفت. جاء معه حاول أن يحركها غير أنها كانت كالقتيلة. قال بهاء: على العموم لنقفلها وغدا تأخذها إلى الميكانيكي كما اتفقنا لإصلاحها. وعليك الآن أن تنقلنا إلى دارنا بحقائبنا. قال عادل: وهو كذلك. وركبا معه سيارته القديمة التي لا تتحرك إلا في حدود القاهرة.

طلب عادل الدكتور بهاء في مساء اليوم التالي وقال له: تصور أن السيارة كان بها بنزين. اشتريت لها بنزينا ودارت وتركتها في مكانها حتى الصباح. ونقلتها إلى الميكانيكي. فماذا رأي؟ .. وجد الميكانيكي أن ماتور السيارة ساقط. واستغرب أن تسير بها كل هذه المسافة من القاهرة إلى مرسى مطروح إلى الإسكندرية ثم العودة بها إلى القاهرة دون حوادث.

اندهش بهاء وقال: ساقط .. كيف .. ربما لهذا كان مقبض القيادة لينا .. وتترنح السيارة في السرعة العالية.

قال: هو كذلك .. سيتم إصلاحها. ونتوجه لإحضارها يوم الاثنين القادم.

وروى عن أوضاع السيارة لعفاف، قالت: إذن كنا سنموت .. لولا أن الله ستر.

وتساءل بهاء: ماذا لو كانت وقفت بنا في الصحراء .. أو في طريق العالمين المهجور .. أو في الطريق الصحراوي ..

قالت: إنني اعتبر أنه كتب لنا عمر جديد .. جميعا.

قال بهاء: لقد كنت أشعر أننا في خطر .. وكنت لا أقوى أن أقول لكم ذلك ..

قالت وهي لا تحاول أن تؤنب زوجها: الحمد لله. إن الله سلم.

فكر بهاء أن يسأل عن الدكتور جمعة. فضغط أزرار الهاتف، ولم يستجب الهاتف للنداء، وطفق يرن دون توقف، فوجد أن يطلب الدكتور جمعة في بلدته، فإذا بالهاتف أيضا يرن رنينا متصلا دون استجابة، ولا أحد يرد، أو يرفع السماعة ويضعها من جديد دون رد. وكان لديه رقم هاتف ابنة الدكتور الكبيرة، تلك التي تزوجت وعاشت في بلدته، وكان زوجها من أصحاب الأعمال في البلدة. ورد الهاتف فإذا به شخص لا يعرفه فسأله: هل الدكتور جمعة سافر إلى السعودية أم أنه لا يزال في مصر؟ ..

أجاب الرجل: الدكتور جمعة تعيش أنت.

اضطرب الدكتور بهاء، وشكره على إجابته وعزاه، ووضع السماعة منزعجا. وأبلغ الخبر لعفاف، فاستغربت موت الدكتور جمعة المفاجئ. غير أنه قال لها: إن حالته لم تكن تسر يوم زرته في بيته. كان غائبا عن الوعي.

اتصل الدكتور بهاء بالصديق المشترك بينهما، ورد إسماعيل عليه حينما عاد من عمله. فقد ترك بهاء رسالة له على آلة الأسئلة. وفي تمام الساعة الحادية عشرة والنصف طلبه.

قال إسماعيل: لقد مات، مات نتيجة تليف في الكبد وأورام خبيثة في الغدد.

استطرد إسماعيل: الحمد لله أن ابنتيه تعلمتا وحصلتا على شهادتيهما لم يبق إلا ابنه. ذلك الطالب المنقول إلى السنة الثالثة

الثانوية. زوجه تصر على السفر إلى السعودية ليستكمل تعليمه هنــاك. فالأوضاع التعليمية في مصر تختلف عن السعودية كما تعــرف. هنــا تجمع درجات السنتين الثانية والثالثة وعلى أساســها يدخــل الطــالب الجامعة أو لا يدخل. أما في السعودية فلا يزال الوضع القديــم ســائدا حيث تكون درجات السنة الثالثة هي درجات الثانوية العامــة ويدخــل الطالب الجامعة على أساسها.

قال بهاء: على العموم وفاة الرجل مصيبة. لكن ما باليد حيلة.

قال إسماعيل: سوف تصل زوجة الدكتور جمعة إلى القاهرة غــدا من بلدته فأتصل بها.

وفي اليوم التالي طلب الدكتور بهاء الزوجة وقال لها بعــد تقديــم واجب العزاء: هل ستسافرين إلى الرياض؟ ..

قالت: نعم أنا مسافرة يوم الأحد القادم.

قال: أنا مسافر يوم السبت. فهل انتظرك بالسيارة لأنقلكم إلى شقتكم .. متى تسافرين صباحا أم مساء؟ ..

قالت بحزم: لا أعرف.

قال: على العموم لو عرفت ووافقت على أن أقلكــم أنــت والولــد والبنت إلى منزلكم فلا مانع عندي. ورقم الهاتف تعرفينــــه فــابلغيني بالموافقة ووقت السفر لانتظركم.

قالت بلهجة باتة مليئة بالبرود: شكرا.

قفل الاتصال وتأمل. ماذا تظن بي، هل تظن أنني سوف أغازلها أو أتودد إليها؟ .. وعاد يتأمل: هذا شقاء قادم إليكم يا عائلة الدكتور جمعة. لكن ما باليد حيلة. إنه شقاء بلا فندق يصنعه.

في الصباح في اليوم التالي، اتصلت عائشة بأختها عفاف من الإسكندرية، وقالت لها نقلا عن ابنتها الكبرى في الكويت أن علوية ابنة خالهما قد ودعت الحياة بعد أن فاجأتها نوبة قلبية وهي تحاول أن تبيع شقتها في الإسكندرية، وأبلغت المرأة المشترية الطبيب بحالتها، فلما انتقل إليها، كانت روحها قد فاضت. استغربت عفاف ألا تتصل بها أخت علوية في القاهرة وهي صديقتها الحميمة وأن يأتيها النبأ من الكويت. وعذرتها لأن الأهل في هذه الحالة يكونون في حالة يرثى لها، ومشغولون بمصابهم الأليم.

وفي المأتم عرفت عفاف أن القهر قد لازم علوية طويلا، ذلك لأن ابنتها خرجت عن طوعها، وطوع أبيها الكويتي، وتزوجت ابن عمها، وتبرأت من أمها، حتى لا يحق لها أن تدخل الكويت مرة أخرى، ولكن في المأتم جاءت البنت التي تبرأت من أمها تبكيها، واستقبلتها العائلة بجفاء. وقالت نسوة العائلة إنها ما جاءت إلا من أجل ميراثها من أمها. شقة مملوكة لها في طريق الأهرام. وشقة أخرى في الإسكندرية لم تتمكن علوية من بيعها. ولا تعرف أن ضيق النفس لازم أمها من حالة القهر التي كانت تعيشها وأودي بها. وهذه قصة أخرى من قصص بنات هذه العائلات التي تتمرد فيها البنات على آلهن.

واتصل إسماعيل بعد ذلك ببهاء وعاتبه قائلاً: ألــن نــراك؟ .. قــال بهاء: من يرى الآخر؟ .. قال: والله أنا أريد أن أراك لكن المحل الــذي افتتحته أعمل فيه من الساعة الثامنة صباحاً حتى ما بعد منتصف الليل.

سأل بهاء: وماذا عن علاقتك بأولادك من الزوجة السابقة؟ ..

قال: منقطعة لا أعرف شيئا عنهم ولا يعرفون شيئا عني. أنا فقــط أعمل الآن ولا أهتم بأحد بعد إحالتي إلى المعاش.

قال بهاء: كان الله في عونك ولكن لا ترهق نفسك. صحتك بالدنيا.

قال إسماعيل: بعد المعاش لا هواية لي سوى هذا العمل. أنسى فيــه نفسي وأنسى فيه همومي وهموم الآخرين.

وأخبره إسماعيل بأمر أفزعه. إن بنت الدكتور جمعة الكبــيرة وقفــت ضد أمها، تطالبها بميراثها قبل أن تخرج جثة الرجــل مــن المستشــفى. وتشاجرا معا بتحريض من زوج ابنتها. يبدو أنه يظن أن الدكتور جمعـــة ترك ميراثا كبيرا لاشتغاله بالسعودية. ولا يعـــرف أن الدكتــور جمعــة اضطر أن يقبل عمله تحت مسمى وظيفة إدارية حتى لا يعود إلى مصـــر وكان لن يجد عملا لفصله من عمله في مصر وكان مرتبه لا يتناسب مــع الوظيفة التي يشغلها - وفي نفس الوقت - كان يقوم بعمل خبير. وكـــان في عنقه ثلاثة أبناء يتعلمون . ولكن الطمع والجشع أعمى البنت حتى فــي لحظات الموت ، فطفقت تطالب بحقها قبل أن تبرد الجثة . ولعلها ســوف تواصل المطالبة حينما تعود أمها إلى الرياض، وتطالب الهيئة التي كـــان يعمل بها والدها بنصيبها في مستحقات والدها، ولن تتوان عـــن إرسـال العراقيل أمام أمها حتى تحصل على نصيبها كاملا. ما هؤلاء الأبناء ومــن

أي طينة عجنوا؟ .. واحدة تخرج عن طوع أبيها وتلحق برجل سافل من هواة الشتائم من أجل متعة الجسد. وآخر يخون الأمانة التي عهد بها أبوه، وينقل ملكيات أبيه إلى أمه. وهاهي الثالثة تتزوج رغم إرادة والدتها وتتسبب في وفاتها من القهر. والرابعة تطالب بميراثها كأنما سوف يُبتلع قبل أن تجف جثة مورثها. والبقية تأتي .. كأنما جاء هذه الإجازة فقط ليشاهد ويتذكر عقوق الأبناء والبنات.

أخيرا عاد الدكتور بهاء إلى الرياض مرة أخرى، وترك عفاف في مصر، كان عليها واجب كلفها به أخوها المهاجر وهو بياض شقة والدهما، التي آلت إليهما هي وأخوها. وطلب منها أن تقوم بالإشراف على بياضها وتغيير سلوك الكهرباء القديمة وتغيير أرضية الشقة من قنالتكس إلى سيراميك.

ركب الطائرة. ووضعه المستقبل في مقعد في آخر الطائرة، واكتشف أن المكان مفتوح للتدخين، رغم أن التدخين اصبح محظورا في الطائرات السعودية. نهض في منتصف المسافة بين القاهرة والرياض شريكه في المقعد المجاور ربما ليقضي حاجة . وفجأة وجد فتاة حسناء تجلس بجانبه . عارية الوجه، مرتدية ثيابا عصرية، بلوزة نصف كم. وصدرها مرتفع أمامها مدبب، وطلبت المضيفة منها أن تجلس في المقعد المجاور له. فتاة في سن الخامسة والعشرين. عيناها واسعتان. أنفها مدبب. فمها رقيق. فتحت حقيبتها الصغيرة، وأخرجت علبة سجائرها. وأشعلت سيجارة. تأملها بهاء ثم قال لها: ألم يقل لك أحد أن السجائر غير صحية؟ ..

قالت: نعم .. أعرف .. لكن ماذا أفعل؟ ..

سأل بهاء: ألم يقل أحد لك إن هذا المقعد لآخر؟ ..

حاولت أن تنهض، لكنه امسك بها وهو يقول: لا .. أجلسي .. إن صاحبه ذهب.

قالت تبرر سلوكها: إن المضيفة هي التي أجلستني هنا .. أختي جاءت من قبل لتدخن. ولما دخنت عادت إلينا – أنا وأمي – وأشارت إلي أنني يمكن أن أدخن سيجارتي في آخر الطائرة.

سأل: هل تعملين؟ ..

قالت: نعم .. أعمل في أحد المصارف بالرياض .. في القسم النسائي.

سأل: هل أنت سعودية؟ ..

قالت: لا .. أنا فلسطينية. ولكن عائلتي تجنست بالجنسية السعودية.

قال: إذن فأنت سعودية.

فكر أن يعطيها رقم هاتفه، لكنه لم يقترف مثل هذا الفعل من قبل، ومن ثم عدل. دخنت سيجارتها وقامت كالبرق الخاطف ظهرت ثم اختفت. بحث عنها في صفوف المسافرين العائدين. لم يجدها . يبدو أنها خرجت بسرعة لأن صف المواطنين يكون عادة أقصر من صفوف الأجانب وقليل العدد.

لا أهمية للأمر. كثيرات مررن في حياته. وكثيرات تعلق بهن .. وكثيرات عشن في أحلامه. لكنه يعرف أنهن لا يفكرن في الارتباط به أو هو ليس في بالهن. ولن يعود إليه الشباب حتى لو فكرت واحدة منهن أن ترتبط به. عليه في هذه السن أن يستسلم ، فإن الشيخوخة زاحفة إليه، ولن تتوقف عن الزحف.

الرياض في يوم الاثنين ١٨/ ١٠/ ١٩٩٩

الفهـــرس